مداعبة الخيال

علي لفتة سعيد

الكتاب : مداعبة الخيال (مجموعة قصصية)
المؤلف : علي لفتة سعيد
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٩
رقم الإيداع : ٢٠٠٩/٢١٣٧٩
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 011 - 9

الناشر
شمس للنشر والتوزيع
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٤(٠٠٢)- ٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٠٢)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف: محمود ناجيه

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

مجموعة قصصية

مداعبة الخيال

علي لفتة سعيد

شمس
للنشر والتوزيع

إلى مدينة الحكايات...

سوق الشيوخ

- هذه القصص كُتبت قبل عام ٢٠٠٣

مداعبة الخيال

عندما يُنهي عمله، يعود متدحرجًا إلى مأواه، قابضًا على أصابعه دومًا. أظافره في راحة يده، يخفي حُلمًا يخاف أن يهرب ويراه الآخرون.. وحيدًا لا يرافقه أحد إلا الظلال المتسابقة مع قامته المديدة ورأسهُ الكبير، في خطواته المتكررة، بلا أنيس يقضي معه وحشة الليل الفاحمة بكوابيسها المتتالية ورنينها الصدى. وقد حصحص التعب في عينيه، صارفًا من كان يلاقيه من أشخاص يعرفونه.. يداعبونه بكثير من الفرح والمرح والمزاح.. يغني لهم، بكل ما يملك من صوتٍ مبحوح، له رنة من يتلوى بالحزن المعشش في الأبدان. يخرجه بلحن له طعم خاص.. يطالبونه أن يغني.. أينما يولي وجهه، يسمع النداء.. غن يا خليف.. أسمعنا صوتك بالله عليك.. يعدل من أطراف يشماغه البالي، يلمها فوق رأسه المفلطح، يمسح طرفي شفتيه، ويصعد عربته ليقدم وصلته الغنائية حسب الإلحاح.

عيناه مثل حماره المطأطئ الرأس.. لا تقويان على النظر إلى الآخرين.. إن كان رجلاً أم امرأة.. صبيًا أم صبية.. لكنه من جانب آخر لا يُفرق بين من يمازحه بألذع الكلمات.. الجميع يحبه، يحتفظ بكمية حب تُعينه في عودته إلى بيته آخر النهار، مستسلمًا لحماره.. فالحمار عند الغسق لا يطيع صاحبه.. يقوده دومًا إلى بيته القصي المنفرد، المبني من القصب.. هو ذاته منذ ثلاثين عامًا، حين لمحته أول مرة، وأعجبتني قوة تحمله وصبره وأنّاته.. صرت مشدوهًا إليه، أسبر أغوار هذا الجسد المفتول، والمنكبين العريضين، والصوت الذي لا يحتاج إلى فرصة لأن تغلق الأذنين، فتضطرك تلك البحة الأليمة أن

تستمر في الإصغاء.. قيل لي، إنه هو.. هو، لم يتغير منه شيء، حتى لكأن رؤيته باتت من معالم المدينة، وتِمثالُها المتحرك المُغني.

يدخل صريفته مكتفيًا بإشعال الفانوس، طاردًا ظلام الخطوات ليراقب ظله المتأرجح على بواري الجدران، يمارس طقوسه الأزلية؛ سارحًا في خياله.. مرآته العاكسة لكل أمانيه المتبخرة، مبرزة أشكاله المُندسة في تجاعيد زمن سحيق من انفعالات الشباب.. وعندما يصطدم بصره بذلك الشاي المتوثب، المفتوح الكفين، يرسم ابتسامة تُشبه مجرى ماء صاف في حقل أخضر.. مُسقطًا استطالات فتى مفتول العضلات.. فتضطر عيناه إلى البكاء.. البكاء المر الحامضي المذاق، في طرف شفتيه المقشوطتين من إطباق الأسنان عليها ضجرًا وتفكيرًا.. فيبقى لدقائق قبل الوضوء في صراع مع اشتداد اللذائذ في مخيلة عارية.. وكأن سؤالاً شب من بين (شبات) الصريفة.. لماذا صِرتُ هكذا يا خليف، حمالاً تجوب الشوارع؛ ليس بحثًا عن الرزق، بل من أجل أن ترمي أثقالك الحزينة في ساحة الوجود، المُستقبلة لخطواتك بكثير من الانتظار.. وإجابتك على أسئلتهم أن تغني.

وحدي من يسأل عن تاريخك.. اسأل عن قبضة يدك المستديمة، كنتُ أراك مثل مارد هوى في ساعة نحس خاسرة، جاءتك على طبق من حديد الخردة.. من المؤكد أنك خليف.. ولكن ليس من أراه.. أسمع أنينك عن بعد، هادئًا هدوء الحرب الخالية من القصف.. وأنت تقبع في موضع صريفتك، بانتظار أن تبدأ الغارة على أحزانك في

الصباح.. تلج مكان يفضي إلى الفوضى، لتلم الزمن بين راحتيك وتطويه بين أناملك وأنت تغني من أشعار أبو معيشي[1] (أبوذية) غارقة في جب الحزن.. لا ينفع (الأبوذية) إذا لم يكن حزينًا وأبو معيشي لا يفهم غير الحزن حتى لو كان في الحب.

قال لي أخي الكبير إنه قال لك ذات مرة:

- لماذا تغني الحزن كأنك تأكله؟

قلتْ له:

- لأنه أكلنا يا أخي في الهم.. فدعني أغني.

يدرك أن ألفاظه رغم سخونتها لا تحتاج في مآبها إلى كثيرًا من التفسير.. مُطْلِقًا العنان لمخيلته.. يدخل إلى أي مكان يريده أو يسبّ من يراه قد فتح شدقيه بطرًا.. ثم يلكز حماره ويصيح (دي يا ابن الكلب).

كثيرًا ما كانت تدفعه محبة الناس إلى عدم احتساب أخطائه المنشورة في الشوارع.. ليس لكلماته أي احتباس.. تاركًا حنجرته تعتريها رغباته المفضوحة وأمنيته المكبلة في أن يجد من تقاسمه المأوى وتُعيد التجاعيد إلى هدوئها.. عندها سينثر الفرح في أي مكان يلجه.. وحين يمازحه الناس يكبلونه بأسئلة لم يفهموا ما ترمي إليه الأمنيات، يكون محصوله حزنًا إضافيًا.

- ألم تجدها؟

- ربما في يوم ما!!

---

١. شاعر شعبي أسمر البشرة.. من أشهر الشعراء الشعبيين في مدينة سوق الشيوخ.

وتبقى على شفتيه أحلام جارحة.. ربما الآن، اليوم أو بعد شهر.. كأنه لم يصدق نفسه بعد.. والسنون أكلت بعضها وصار العمر عبئًا على حامله.. متحاملاً على محنته.. له محنة عظيمة لا تُفصح عن أنساقها، ولا يريدنا أن ندوس على طرقاتها.. أراه حين يكون صامتًا.. أراقب حركة شفتيه وإضمامة كفيه، كأنه يصدق حكمته الخاضعة إلى نهيق حماره.. إنه الصوت الوحيد الواقعي.. وإن المزاح هو أول النتائج القادمة مع أهالي المدينة. لا يلتفتون إلى دواخله، ينظرون إلى حضنه البارد ويعلقون في أحشائه ما ينقصهم من الضحك.. تزوج خالتي.. عمتي.. غن يا خليف.. غن.. ما نفع النساء بلا غناء.. ويغني خليف.. يملأ معدته بلا حساب.. فتزداد سعرات الغناء في حنجرته.. مُأرجحًا ساقيه في الهواء.. مُسندًا ذراعيه على خشب العربة كمن يأخذ قيلولة الظهيرة في شوارع المدينة.. قاطعًا المسافات بين الأطراف.. من محلة (الحويزة) إلى حي (أم شريف).. ومن (الصابئة) شرقا إلى (الصلبة) غربًا[1].. حتى يدهمه إحساس البكاء.. حين لا يجد مخرجًا لبكائه، وإذ يراني أراقبه، ينظر إلى وجهي ويغني:

علي العسر عام بعام منحال
وبقى جسمي أعلى طول الوكت منحال
يلاهي أنت التبدل الحال من حال
لو هي موت لو بفراج إليه

---

١. من الأحياء السكنية في سوق الشيوخ

أكنت تتمنى الفرح حقًا أم تنتظر الموت لينقضي ما تبقى من العمـــر، دون أن ترى الوجوه التي غادرتك في غفلة فلم تجد غير أن تغنـــي هذه المرة من أشعار أبي الحزين هو الآخر؟ متسمعًا إلى وقع القلوب قرب قلبك، تضرب على حجر صلد جاثم فوق صـــدرك.. مرصـــوف بعناية على شكل منجل أو نصل سكين أو رأس رمح أو حلقة مشنقة، قلت لي ذات مرة.. أدهشتني وجعلتني استنفر طاقتي للبحث عنك:

- إن الحزن أكبر وأثقل من أحجار الأهرامات.

مسحتْ تلك الغمامة التي غطت كثافتها على اســـتقرار اســـتنتاجاتي السابقة.. هل كنت تقرأ؟ هل تفهم الأمور بشكل جيد؟ أم أنـــك رجـــل يتصنع الجنون وتُخفي وراء ظهرك أورامًا لا تندمل!!

يهز رأسه.. رأسه المتمايل أبدًا.. يتركه لحظة ويلوح بالبحـــث عـــن إجابة، ينظر إلى السماء.. يضع عينيه بزرقة لا تُعطي زرقتها دومًا، كأنه يخبرني أن ابحث عن الإجابة في الفضاء.. ثـــم يلكـــز حمـــاره ويواصل سيره باتجاه مقهى (غضبان) ليشرب الشاي. غامضًا أراه.. ووراءه حكاية، قد تأتيني في لحظة خاطفة. .مُندهشًا من تكوينه.. لا يزعل، لا يغضب، لا يصرخ ولا يشرب الخمر.. يغني فقط.. ينادونه.. خليف تعال.. انقل لنا الأغراض.. إنه حمال المدينة المدلل.. لا يحدد أجرته، كل ما يهمه هو أن تصل الأغراض إلى مكانها وهو يغني.

مرة رأيته صامتًا، تفور في عينيه كآبة لها سحابة ممطرة.. الفتـــاة الجميلة التي كانت تقف جوار أمها سمعتها تقول:

- لماذا لا يغني خليف؟

ضربتها الأم بمرفقها:

- اصمتي يا بنت.. عيب.

كانت الأغراض غرفة عرس، اختارته المرأة لأن الزقاق ضيق لا تدخله سيارة الحمل الخشبية.. اقتربتُ منه وقبل أن أساله أمطرت سحابته قطرتين.. جعل مثواهما طرف يشماغه الفاقد لبياضه.. وأشاح بوجهه عني، ثبته على خشب العرس اللاصف، أكنت تبحث عن ضياعك.. أم وخزك الضياع؟ وبعصبية فاقدة لعناصرها صاح (دي.. يا ابن الكلب) والسوط يلوح في الريح.. وذابت خطواته في الأزقة الضيقة مثل نوافذ رطبة تطل على شارع لطفي[1] تاركًا أسئلتي تتقافز في رأسي مزاحمة خيالي الذي لا يهدأ.

كان خليف عبارة عن فوضى جميلة.. أحاول أن ألم شظاياها.. سألت أخي الكبير عن عمره، قال لا أحد يعرف عمره.. اذهب إلى علوة (حجي عناد)[2] واسأل الشيوخ.

هناك كانوا يفترشون العصر على بواري القصب، متكئين على أعمدة خشبية، سألت.. هل خليف رجل مثقف يقرأ ويكتب الشعر مثلاً؟ صمتوا وقالوا إنه ذاكرة كبيرة، قال أحدهم وهو يسعل:

---

١. شارع لطفي.. أول شارع يُعَبَّدُ في القضاء.. وأطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى قائم مقام المدينة الذي عُبِّدَ الشارع في زمنه.

٢. علوة الحاج عناد.. من أقدم العلاوي في المدينة لبيع البواري والقصب والأعمدة الخشبية الطويلة والحصران وكل منتجات النخيل عدا التمر.

- عندما كنتُ صغيرًا كان هو موجود، ولكني لا أتـذكر أنـه كـان حمالاً..

ضحكوا وواصلوا سرد حكاياتهم ومداعبة حبات مسابيحهم.. خرجت من طرف الشارع ابحث عن عربته.. شـيء مـا شـدني.. رفعـت قامتي.. رأيته والظهيرة تجعلني أرى الوجـوه بوضـوح.. جـاءني مسرعًا.. ألصق شفتيه على أذني وهمس:

- لديك رواية الوسادة الخالية؟

انصعقت.. بذلت مجهودًا لاحتوي المشهد.. ثمة عراك في داخلي يريد إثبات صحة ما يدور في رأسي.. كانت كفه قد انفرشـت أمـامي.. تحركت أصابعه خارج الراحة لبرهة.. وتغيرت تلك الملامح المجعـدة في وجهه ورقبته وابيض وجهه الدائري.. نظرتُ في عينيه محـاولاً إيجاد كلمات تُعينني على استدراجه.. رأيت طيورًا وأحلامًـا بـيض ورايات خضر ووجوه عشق.. كانت المدينة قد خف ضـجيجها ولـم أعد أسمع نداءات الناس عليه.. كأننا وحدنا.. هل هذا أنت أم شبيهك خرج في هذه الظهيرة؟ ووسط انذهالي سمعته يُكمل:

- قرأتها منذ زمن بعيد وأريد قراءتها من جديد.

هل أعجبك العنوان أم ما بداخل الرواية؟ ابتعد خطوتين وأشار لي أن اصمت.. لكز حماره وانطلق كمن يطير.. يحلق فوق الإسفلت تاركًـا متابعتي تسبح في حريتها.. التفت ناحيتي راسمًا ابتسامة كبيرة مثل طفل كبير، وجاءني صوته من بعيد يغني عن الحب، أول مرة يخالف قصائد (الأبوذية) ويغني لأم كلثوم.. صاح الناس.. الله يـا خليـف..

خرجوا من محالهم ومن بطون المقاهي والمطـــاعم.. ترجلـــوا مـــن السيارات، حتى رجال مركز الشرطة الوحيد وقفوا عند الباب الأخضر يهزون عصيهم، تجمهر الناس على الرصيفين.. وتوقفت العربـــات.. خرج الأطفال من البيوت تتبعهم أمهاتهم.. واختفت الجزرة الوسطية بزحام الحلوق الفاغرة.. الله يا خليف.. ما هذا؟ تحول اللحـــن مـــن المصري إلى الريفي العراقي إلى (اليمّة) الحزينـــة التـــي حـــاول أن يعطيها نبرة فرح.. والناس ينصتون لصوت خليف الجديد والشوارع تردد صداه.

- يمة يايمة.. هل رأى الحب سكارى.. مثلنا.

وأنا وحدي المشدوه وسط دائرة الرقاب، والصـــوت الوحيـــد الـــذي يقاطعه:

- الله يا خليف غن لنا أطلالنا.

انتبه على نفسه.. كان داخل قفص ضيق لن يتركـــه الآخـــرون بـــلا مناكدة.. صعد فوق عربته وأشار لي برأسه أن ألبي طلبـــه، وقـــرر الهروب..

عند انتصاف النهار عائدًا إلى صريفته القصية أسابق لهفتي، راكضًا إلى البيت أدرك خطواتي.. متلفعًا بدور آخر سألحقه إلى بيته لأدخله حماستي.. لأكتشف عالمًا لم يفضح دواخله.. تاركًا الأجساد الذاهلـــة تحت ظهيرة ساطعة تتهامس غير مصدقة.. خليف غنى هذا اليوم لأم كلثوم وغدًا سيغني لعبد الحليم حافظ.

حين تصاعدت حمى التدوين في داخلي شعرت بارتباك البداية التي سأدخل فيها كاستهلال منطقي.. كانت الأوراق أمامي.. وصوت أخي الكبير يستفز مخيلتي.. طبعًا كان بإمكاني أن اكتبها، ابدأ بوصف صريفته وعلاقته بالحمار.. متناولاً معرفته بتاريخ المدينة لأنه أكبر رجل معمر فيها.. مركزًا على التغيير الذي أحدثه الغناء لقصيدة الأطلال.. لكنني وجدتُ نفسي أمام ركام من الأمثلة المركبة.. أعرف ذلك يا خليف حتى لو كان بالحيلة.. ولكن السؤال لماذا تضمر أسرارك وثقافتك وتتصنع الجنون اللذيذ أو خبل الحمالين؟ كأنك تهرب من رؤوس الناس إلى رأس حمارك.. كنت تستطيع أن تضمن لأيامك فسحة من الراحة.. وأن تنظر إلى كفك لا أن تلمها.. وتقرأ.. ورواية الوسادة الخالية بين أصابعي أروم الوصول إليك وبوسائلي سأستغل وحدتنا وأطالع ما تخفيه.. بحركة مفاجئة.. دفعت الباب الصفيحي.. وألفيت نفسي في فضاء تعبث فيه أورام الرائحة الكريهة.. خليط من براز الحمار والأوساخ ونتانة طبقات الترهل لأعوام طويلة جدًا. أشم رائحة قديمة تخرج من جوف الصريفة.. تأتي مسرعة إلى أنفي فتصطدم برائحة الخارج فتصاب بالربو وتعود.. وخليف جالس أمام الحمار في الفناء الترابي وحدهما يمسكان بذرات الصمت الممغنطة.. لم يشعر بخطواتي.. تقدمت وصوت الطين اليابس يضرب أذني.. رفع الحمار رأسه وأنا ارتعش منتظرًا أن ينتهي.. أكنت تبكي؟ أسمع سقوط دموعك مستغرقا حد التلاشي كراهب يتعبد للخلاص.. تتأمل دواخلك لعلها تنفجر بحلول

تقذفك خارج التيه.. هل تلعن نفسك؟ تركتك لطقوسك.. لمرآتك.. مكرسًا جهودي باتجاه آخر، ممسكًا بنظراتي لأن تتوغل في صريفتك.. رأيت ثمة صورًا ثلاثًا معلقة.. امرأة جميلة بعباءتها بين شابين يافعين، في الزاوية البعيدة ثمة صورة لفتاة أخذت ابتسامتها حيزًا من بياض الصورة.. ها أنت وحدك تعيش مع صورك وصوت الحمار.. أتحاول أن تهرب إلى صفاء أدكن وأنت تقابل حمارك لتكون بلا ذاكرة؟ طلاسم تحتاج إلى صفاء وإصغاء..

يدنو إلى عيني حماره من دون كلل وأصابعه تكورت فوق فخذيه.. كان سبابته الوحيدة الهاربة من إضمامة الكف تشير إلى مجهولٍ يريد إيضاحه. انفصلت أذناه عن العالم، أغلق نوافذ الاستطلاع إلى ما حوله وظل مقعرًا إلى ما بداخله، فائرًا.. مخنوقا.. بانت عروق رقبته أعلى ياقة دشداشته البالية.. كخطوطٍ زرق ملتوية.. شيء ما معصور في صدره العريض منتبهًا إلى رياضته اليومية. خطوة أخرى.. مُحاذرًا صوت تفتت الطين اليابس بكعب الحذاء.. دخلتُ إلى فضاء الصريفة.. الفراش قذر كأنه لم تمسسه يد امرأة منذ عهود.. صرخت عيناه.. شعر باختضاض في أعصاب وعضلات جسده.. ودوار أرجوحة تدور به بترجيحة اهتزازية.. كومة من الكتب في الزاوية المقابلة لباب الصريفة احتلت مثلثا شكل ما بين جدارين.. ثمة ضوء يسقط من خلال شدات القصب فتتحول بقايا الشمس إلى ملاذ لرؤية العناوين لأمهات الكتب الأدبية والتاريخية والفلسفية.. طبعات قديمة لأغلفة بارزة فوق الكدس.. كتب أهملت قراءتها

وغطتها خيوط العنكبوت.. خيوط رفيعة اصطادت الغبار والحشرات وصعدت إلى السقف لتُكَّون ناموسية مثلثة تخفي تحتها حمام الثقافة.. أدرك أنه أمام رجل انفضحت بعض أسراره وكشفت عن جيدها.. تصاعدت حمى الاستطلاع وتقدم خطوات أخرى باتجاه الصور المعلقة.. رسم بخطواته آثار من يندس خلسة، تشبه هلالاً لم يكتمل من جهته العليا.. قرأ ما كتب أسفل الصور:

الصورة الأولى: الشهيد محمد خلف استشهد في ثورة ١٩٥٨م

الصورة الثانية: الشهيد محمود خلف استشهد في ثورة ١٩٦٣م

الصورة الوسطى: الهاربة من الحزن منذ عام ١٩٦٧م

أكمل بخطواته رسم الهلال من جهته العليا عند الزاوية الثانية.

الصورة الرابعة: حمدية خلف الهاربة من جوع أبيها منذ عام ١٩٧٣م

منح نفسه الإذن ليتقدم أكثر في سراديب هذا العالم المجهول.. آثار مندسة عن أعين الناس، ولم يعد يكترث بالرجل الجالس أمام حماره أن يغضب.. يثور.. يضربه.. يطرده.. ليس هناك ما يوحي أنه سينتبه لوجوده.. لا وقت للتراجع حتى يفهم ما دار.. در إلى عالمك الآن وانفض الغبار عن ذكريات رجل بدّل اسمه بزيادة حرف الياء دلالة التصغير والجنون.. وستعرف الكثير الذي لا يعرفه أهالي المدينة عن حمالها المجنون، صاحب الوجه البشوش والنكتة اللاذعة المغني لأطوار الغناء الريفي.

لقد رفض ذات يوم أن يُسجل ألبومًا غنائيًا مع المطربين جبار ونيسة وناصر حكيم وداخل حسن، وعندما سألوه لماذا قد تتحول إلى مطرب مشهور؟ قال ورأسه يتمايل:

- يكفيني ما أحصل عليه من ابتسامات ورضا.. ألا تكفي شهرتي في هذه المدينة التي تملك نعمة النسيان؟

حك جبهته وانحنى يلم الأوراق.. عائدًا بخطواته على ذات الأثر الهلالي ليقف في رأسه السفلي قريبًا من مغيب الشمس، نفخ على الخطوط فتحركت الحروف بأجنحتها وطردت الغبار.. ما الذي اقرأ يا خليف؟ هل حقًا أنك سجين سياسي؟ ما هذه العبارات الجميلة التي وثّقت احتجاجك على استشهاد ابنك في الثورة ولم تحصل على جسده لتدفنه؟.

كنت هناك أذرع مسافة أربع جدران بثلاث خطوات، والصراخ والجوع والوحدة يمدون رقابهم في الظلمات.. وذاكرتي ترتبط بحبل سري إلى صريفتي.. وجه زوجتي ذابل.. وذراعا ولديّ قصيرتان وابنتي بضفيرتها المتشابكة تلوذ بصمت العوانس.. أقدامهم أراها متشققة يبحثون عن لقمة.. ومكتبتي لا تمنحهم لغة البحث عني، بينما داخلي ظل يرتعب مما أنا فيه.. يقلب الأوراق بحثًا عن ترابط الصفحات وخفقات قلبه مسرعة.. قلب الورقة إلى احمرار الشمس.. قالوا ابنك الثاني مات.. فاخرج ودع لسانك في لهاتك.. هل ينفع البكاء ولم يبق لي من ذرية تحفظ ماء ظهري؟ هل أفرح ويداي مكبلتان بالوعيد، وأنا أتلقف الضوء بين أحضان زوجتي الناشفة

ودموع ابنتي الجارحة؟ وحيدًا أذرع الشوارع.. ولساني قريبًا من اللوزتين.. سقطت الأوراق من أصابعه.. انحنى عاصرًا الوسادة الخالية تحت إبطه.. وتلقف ورقة ظلت تسبح مثل طائرة ورقية قطع خيطها.. الجوع علامة المفلسين والطريق إلى إسقاط ما تبقى من حياء.. وليس هناك مستعمرًا أطالب برحيله بهذياني ويمنحني فرصة لأطلق حرية اللسان.. ما نفع أن تقدم على أشياء لا تقدم ربحًا.. جن الليل وتخبل النهار.. متلفعًا بسواد قاتم لا يستر ولا يعين ولا يمنح غطاء، مثلما أعطيتْ شابين رويا بدمهما أمنيات الآخرين.. ابتعت حمارًا وعربة ورحت أغني.. أغني لوعتي لأرطب لساني.. آه.. أيا ويلي أيا ويلي.. يمة يا يمة.. معلم على الصدعات قلبي. ولم يثبت رأسي من لحظتها ولم أنتبه إلى الأوراق والكتب وقلت ما نفعها وأنا..

لم يعد يرى شيئًا.. دخل الظلام خيوطه الأولى إلى جوف الصريفة ولم يستطع قراءة ما حذف من كلمات.. كانت الخطوط مضطربة.. كمن ينفث نارًا حارقة بحركة القلم.

رنت في داخلي آهة.. استرقت نظرة إلى الوراء.. كان خلف تمثالاً تهدل رأسه.. أطلقت حسرة أليمة وأغمضت عيني لأريح رأسي خلف وسائد خمس كانت مركونة، برز وجه زوجه تحت صورة حمدية.. أراد أن يصرخ.. خليف هذه زوجتك تعال.. لم يعد هناك شيء اسمه الانتظار.. ها هي تجيئك.. إنها موجود في الصريفة لم تغادرها، لكن صوتها فاجأه مُحملاً بهمس مخيف..

- ماذا تريد يا ولدي؟

- أن افهم.

- عنه؟.

- نعم.

- لقد كسر أقلامه وترك عقله مع حماره.

-إذن أرجوك.. احكِ لي لماذا تركتيه وحيدًا؟.

أخذت المرأة تبكي.. تشخب دموعها..أخفت صوت نشيجها بوسادة، مقوسة ظهرها.. وضعت الوسادة في حضنها وبدأت تهز ساقيها المثنيتين:

- لقد أتعبني.. كان يقرأ ويكتب.. أقول له إلى أين تصل بنا في قراءتك ونحن جياع؟ هذه الأوراق قتلت ولديّ فماذا تقتل بعد؟ كان يقول لي.. لا شيء أنفع من القراءة والكتابة.. لأنني أفهم نفسي.. وعندما أعياه الصمت، تحول من مثقف إلى حمال.. صار صيته أشهر من وزير.. حتى الأطفال صاروا يلاحقونه بالطابوق.. هربت إلى مدينة أخرى وبقيت ابنتي معاندة.. وعندما رأت أباها يغني في الشوارع لحقتني.. عندها لم نجد غير المرض فاستسلمنا للموت.. آه.. إنك تتعبني.. أريد العودة إلى النوم..

نهق الحمار.. أصابته رجفة خفيفة..التفتْ إلى المرأة.. لم يعد يرى شيئًا.. ركض خارج الصريفة.. كان خليف قد استسلم تمامًا.. وذاب في رؤيته بلا حراك.. تقدمتُ خطوات لأعطيك رواية الوسادة الخالية.. لم أجد أمامي إلا الظلام.. وقفتُ والباب خلفي ارتجف.. لا

أدري ماذا أفعل.. إلا إنني أريدك أن تكمل حكايتك.. فقط أخرج لسانك ولا تخف.. دع كفك مبسوطة وعد إلى أوراقك.. اخرج للناس بوجه آخر. هذه المدينة تحبك.. ناسها وشوارعها وأزقتها ونهرها.. كل شيء فيها يحبك، المدينة هذه لا تعرف كيف تكره و..

قطعت كلماتي بنظراته الحارقة.. أحرقت جدران رؤيتي، وبان وجه الحمار وهو يبكي.. أكنت تبكي معه؟ شعرت بالخوف.. أردت الاعتذار.. أن أوضح الأمور.. أصابني بأحجار لم أرها.. سال الدم، صبغ ملابسي وتحول التراب إلى بركة لزجة.. بينما تصاعد الغبار من جوف الصريفة.. وحلّقت خيوط العناكب.. وطارت الحمامات ترفرف بأجنحتها.. أعطيت لساقي حرية الهروب مستغيثًا بأخي الكبير أن يُخَلِّص رأس الحمار من حضن خليف.

قال أخي الكبير:

- اكتب ما تراه، وحوله إلى قوة دافعة.. النهاية يجب أن تكون محاولة لمزج الواقع بالخيال.. هذه قصة جميلة عن أحد شخوص مدينتك.. دونها بطريقة مشوقة.. حرك مشاعر القارئ.. في تلك اللحظة التي كان يطوي فيها المسافة.. سمع نهيق الحمار.. نهيقًا يعادل صراخ قرية مستغيثة. أكان يصرخ فعلة لم يلحظها؟ لا يدري وهواء المسار الرطب يضيق من فتحات صدره اللاهثة المتعبة.. كنت أركض.. أركض لأصل إلى أخي.. إنه يحب خليف، صديقه وعليه مساعدته.. إنه يستسلم تمامًا لمجهوله، لكن صوتك جاءني:

"دعهم يتذكرون خليف الحمال.. المغني في عربته وموسيقاه أجراس حماره الذي يفهم نداءاتي.. أرجوك دع لسانك بين شـــفتيك، لا نفـــع للأشياء الأخرى.. أرجوك..أر... جووووك...ك".

وقفت.. شيء ما شدني.. استدعاني.. رسمت نصف دائرة بأنفاســـي لريح الجنوب الساخنة. كانت النيران تسابق هجيجها.. تتصاعد إلـــى عنان السماء.. حريق.. أكل الجانب ذاك كله.. كـــأن بيوتًـــا كثيـــرة (لمعدان) المدينة قد احترقت وتناثر التبن فـــي الفضـــاء.. والـــدخان يتصاعد من هناك، من بيت خليف.. من ذاك المكان الـــذي احتـــوى صورًا أربع وجسدًا وحمارًا فقد صوته.. بينما الليل، تـــرك ســـواده مستسلمًا لجمرات القصب والأوراق.

ترحال

حمل أمتعته وغادر المدينة.. تدله عصاه على الطريق، يبغي الوصول إلى مدينة أشرقت عليها الشمس ولم تغيب.. فمدينة لـفّ جسـدها الحزن المتغلغل في البيوت.. وصارت طرقها خاوية تهمس جـدرانها مرتعشة. في قلبه نصل سكين، لحظة انغرز عميقًا، أصابه الوجـع، واسودت الدنيا في عينيه، فقرر الرحيل إلى مدينة تلتقي عندها جهات النجوم وتبرق في ثناياها الأضواء، تخفق القلوب كلما ذكروها.. بـل صارت محط رحالهم كلما اشتد الأنين وزاد صراخه.. كـان يتحـرك ببطء ليحافظ على ما يخفيه تحت عباءته.. يلتفت يمينًا ويسارًا يقف ليراقب الوجود، لا تسعفه عيناه على التحديق جيدًا، لكنـه بغريـزة الرجال يعرف أن لا أحد يراقبـه؛ إذن لا أحـد يعـرف مـاذا بيـده المضمومة تحت العباءة..

لم تكن المخطوطات -رغم سريتها- غير مدونات ذكرها الراسخون في الحفظ والتدوين التنبؤ بعد أن تناقلتها الشفاه الواثقة مـن الآذان، لتختزن في العقول، وعندما طُمِرَت الأسماع بعجين الخوف، وطنـين قرقعة المعادن وبقاء مغناطيسية الصوت الرهيب تعبث في التـراب، راحوا يتناقلون همسًا أسرارهم، حتى انبرى من أمسك بالقلم ليـدون ما نثرته الألسن.. جلس ذات منتصف الليل.. وبدأ بترتيب المـدونات على ورق أصفر مبلول بماء العشب البري. وقد نُشفت قبل التـدوين عليها تحت ضوء القمر لدورات سبع متكاملة.. ليبدأ بالتـدوين بعـد انتصاف اليوم.. يبلل أطراف أصابعه ويودع بعد اكتمال القمر دورته

السابعة إلى من وجده مستودع أسراره.. قبل الرحيل الأبـــدي إلـــى المدينة ذاتها.

كان يُصارع في كيفية إيداع المخطوطات التي وصلت إليه من أبيه.. من جده الأول حتى جده السابع.. وتحولت عظام الجميع إلى رمـــيم، وهم يوصون من يرث المخطوطات.. العبارات ذاتها.. إن هذه المدينة انشأها رجل يملك من الشجاعة ما يفوق أجيالاً، ومن الحكمـــة مـــا يُعادل كل من سطع اسمه في زمنه وبعده.. ومن العدل كل من جلس ليساوي بين الناس.. استقر به الترحال عبر الصحراء.. في ربوعها العطشى.. حولها إلى واحة.. انبثق الماء تحت قدميه.. فتناثر بـــين جنباتها طالب العلم إلى جانب طالب التوبة.. لم يكن يحمل غير اسمه الذي تناوشته الطير فتصلي له.. فتبدو أســـاريره للنـــاظرين إليـــه.. حاسدين أو عاشقين.. كأنه يقرأ ما يجول في الخواطر من إرهاصات زرق ومخاوف حمر.. سار بين الناس الخائفين عليه وكـــان خائفًـــا عليهم.. فيقول لهم:

- اسألوني قبل غيابي.. لأني أعرف ما لا تعرفونه.

فكانوا يقولون له:

- إنك من تقود وما علينا إلا أن نُقاد.

قلَّبَ الرجل المخطوطات السرية في مساء استعداده للمغادرة، فأعجبه ما فعله الأجداد من أنهم الحافظون على الأسرار.. وراح يقرأ لآخـــر مرة على ضوء الفانوس، محني الظهر.. وعندما وصل إلى مخطوطة صفراء.. نزلت دمعتان.. "إن من سار على هداي سيظل فـــي دنيـــاه

ويربح مثواه، ومن سار على درب الفضيلة تخطى عتبة الرذيلة.. ومن دُفن في ربوع مدينتي محبًا متقربًا إلى ما تقربت إليه، لن تنهشه ظلمة القبور". أطلق الرجل حسرة وتابع خطاه.

بعد قرون كبرت المدينة.. وصار الناس لا يقرأون، بل ولا يسمعون ولا يعرفون من أمر الكلمات شيئًا.. حتى ظن المحبون أن لا مخرج آخر يقود إلى النور الساطع، فتدثروا بظلال الصمت وصارت الظلمة ميزان الرؤية.. والرجل يئن من خوفه يسأل نفسه، متى يستطيع أن يعلن للناس أن له من المخطوطات ما تجعل كل من يقرأ يرتد على أعقابه؟.. لكن حفيدًا برز وقاد خطاه نحو التصحيح، فتهامس الناس من هذا الرجل؟ نقّبوا شجرته.. سألوا كبار المجالس.. سمعوا حروفه مثل موسيقى تطرب إيقاع الروح.. وعندما اطمأنت قلوبهم تركوا خطاهم له.. ووجهوا آذانهم لكلماته الحكيمة الموروثة.. خرجت بعض الأقاويل المتفرقة.. لتسكن الرؤوس بلا مصدات.. حاولوا صهر الكلمات في بواتق من ذهب وفضة.. ليخبئوها في عقولهم حتى لا تهرب من جديد.. مترقبين لحظة ينشق فيها إيوان الخمول، ليضربوا في لحظة موقوتة الميعاد، خوفهم.. تاركين أكفهم تمسك بمقبض سيفه.. أو تلوح له كأن القرون تلاقت.. فعادت النذور تروي بدمائها الجدران والشوارع.. ويرش رذاذ الماء على المارين في احتفالات مهيبة، بعد تحقيق المآرب، وعندما اشتد الحديث وصارت الرقاب تمد لاحتضان رؤيته، نغزتهم المعرفة وعرفوا أن للكلمات ضرائب.. وأن السير خلفه محفوف بالمخاطر، فانغرز نصل الترقب كوخزة أليمة

حسبوها إنذارًا للعودة إلى الصمت.. لكن الحفيد أعلن وضوح الرؤية وغاية الأهداف، وطبع أقوال جده على ورق ناصع وزاد عليها إضاءة المعرفة؛ لتخرج من كف إلى كف لتجد مكانها الزجاجي على الجدران، موقعين عليها تاريخ رحالهم لشرب السلسبيل، نافضين الغبار عن جهلهم، ليجدوا عنادهم يرقص في دواخلهم.. عندها ارتاحوا.. وصفقوا، وقبَّلوا يد الحفيد، هاتفين باسمه بعد أن وفر لهم الماء بعد عطش.. ناظرين إلى بياض وجهه وطلعته البهية، مصغين إلى كلماته الداخلة بلا استئذان لفراغات العقول، ليصادر لبهم القلق العائد بهم للتمسك بأقوال الجد العظيمة.. ورأوا الطيور أيضًا تأخذ مكانها بين حدقاته، عندما يعتلي منصة الكلام.. فيبايعونه مُغمضي العيون كأن قلوبهم لا تقبل أي تأويل آخر.

كان الرجل يستمع للعائدين بنشوة متوقدة.. يسألهم: كيف وجدتموه؟ ليفتح فاهه المعرض لاستقبال التوضيح وحمد الله أن ليس له أسنان تصد الكلمات.. قالوا له:

- رائحة المسك تَحُف به كما هي رائحة التاريخ والحكمة.. عندما يحرك أصابعه مع صوته الهادر في الفضاء.. تهتز له القلوب وترتعش الحناجر، كما لو أن الجد هو الذي بينهم.. طلعته بهية.. عندما يرونه قادمًا، تخرج أصواتهم بإيقاع واحد.. كأنهم ولجوا الرياض بلا منغصات.. ليعيد عليهم كلمات الجد التي لم يستطع أحد من قطاع الطرق ونهازي الفرص وجوابي الإفك من تشويه معانيها.. فيكون ذاك النهار الذي رأوه فيه على غير عادته.. كأن الجد يرسل

رياحه في وقت يخالف الطقس، عندما ينتهي الحفيد ويسحب أنفاسه. عاد المناخ ممطرًا أو ساخنًا.

قال لهم: ماذا يقول لكم؟.. ينتظرون لحظة ليعتدل في جلسته فهم يعرفونه لا ينام حتى يسمع منهم كلما رأوه. قالوا له: إن كلماته يجوس بها على مسمع الرؤوس المصغية.. والتابعين يزدادون كل يوم، حتى خافوا عليه.. لأن لحظة الانتهاء، قبل اكتمال الأوان أرادوها قريبة.. قال لهم: إن الدرب يوصل إلى حيث تريدون.. وإن الشجر الوارف سيزداد خضرة وستعشش الطيور بين ظهرانيكم وسيغيب عنكم الخوف قدمًا بعد قدم، وستزول الرهبة عندما يقررون، لو أنكم ابتعدتم عن الرذيلة وسرتم في درب الفضيلة. فأنا واحد منكم، لا أملك كل المفاتيح.. ولكن عليكم بزاد التقوى.. مسكنا لِحانا وسيطرنا بالكاد على انفعالات البكاء.

• • •

في لحظة اقتراب النجمة الساطعة من القمر في انتصاف شهره.. دغدغه الفرح ولم ينم ليلته تلك، قضاها راكعًا ساجدًا قارئًا لأدعيته. في اليوم التالي سمع بخروج الحفيد.. انزوى في غرفته يُقلب المخطوطات المخفية في الجدار.. أماط الغبار عنها بنفخة قوية، وعرى كلماتها البلاغية، وصاح بأحفاده:

- إن يوم السطوع قد بان وإن إشارات النهوض ومضت، ولزوجة الهدنة التي صارت كتقية لابد منها قد ماعت.

وقال لهم بين التقاط لهاثين:

- إن الحفيد هذا هو هدفكم في الانتباه إلى درب لم تطئوه لأنكم كنتم سادرين في التيه.. انتبهوا إلى كلماته لأن فيها من الانطلاق ما يجعلكم قريبين من التوبة.. انتبهوا إلى طريقكم الجديدة واسلكوها.. ستكونون آمنين ولكن.. عب كمية من الهواء ليذيب مرضه ويريح حنجرته المتعبة.. عدّل من يشماغه وواصل الحديث:

- دوروا بين البيوت لتُنَبهوا الآخرين إليه.. فهو الحفيد النابع من تلك الشجرة المقدسة بل هو من نفس ذلك الغصن الذي علقت عليه أسماؤهم وكانوا أقمارًا..

تهامس الأحفاد غير مصدقين لأنهم لم يستوعبوا ما خفي من المعاني.. وما يقصده جدهم.. نظر الجد إليهم.. عرف استغرابهم.. أخرج لهم المخطوطات ففتحوا أشداقهم متعجبين.. لم يروها من قبل.. لم يعرفوا أن جدهم يحتفظ بأي شيء.. نفخ الجد في وجوههم وقال:

- لم أخبركم لأن لا أحد أثق به كما كان يثق آباؤنا من قبل.. وراح يقص عليهم الرؤيا.. وها هي الضرورة قد حانت..

سأله كبير أحفاده:

- وهل سيستمر الحفيد بجمع أشلائنا؟

حك الجد ذقنه واختفت نظراته في السماء.

قبل أن يغادر سبقته ليلة أرعبته.. كانت أشجار حديقته قد ذبُلت أوراقها ولم يحن وقت الخريف بعد.. وتقوست أغصانها.. لحظتها

راح يرشق السماء الصافية بنظرات مستطلعة.. لم ير فيها نجومًا وقد غاب القمر.. كأن المتاهة عادت لتجوس في الطرقات والعقول من جديد.. وأن ما كان لابد ألا يكون.. عرف أن رؤيا الأجداد التي تترك غصة في نهايتها كلما وصلوا إلى الختام.. فانغرزت بين ضلوعه كرة من شيخوخة أعادته إلى فراشه كئيبًا.. غطى رأسه بذراعيه وحوقل وبسمل وأرخى جسده.

عند انتصاف ما بعد انتصاف الليل سمع صوت طلقات.. تناثر من هدير رعديد.. حسبها تشبه لحظة طعن الجد عندما انتهى من بناء مدينته وكان قد وضع جبينه على الأرض ليسلم رأسه إلى شق سيف غادر.. جلس مذعورًا لا يعرف طريق الخروج وروحه تتراوح في بدن أهلكته السنون ومخاوف من أنه لن يجد يدًا يورثها رؤى الأجداد وثروة الكلمات.. في آخر ركعة له قلب لآخر مرة المخطوطات.. حينها قرر أن يبدأ رحلته حاملاً مخطوطاته ليجلس جلسته الأخيرة قرب مثوى الجد وقد أخذه التفكير طويلاً لأي حفيد سيعطي المخطوطات ليحفظها من الضياع؟ فربما لم يحن بعد وقت اطلاع الناس على المدونات وهم مشغولون بالتقاط الأنفاس و....

ناشينا

الناس الذين التقيناهم أكدوا لنا أن شجرة العائلة مزقتها الفتن القادمة من البحر.. لم يحددوا ما يقصدونه بالبحر أو يذكرون اسمه.. فهم في الغالب من الأحيان يسمون النهر العريض ساعة غضبهم بحرًا، ولأنهم تركوا العلة واضحة، فقد استطعنا أن نوجز الأمر فيما بيننا وأن نواصل البحث، وأن لا نركن لغبار الأسئلة.. تفاصيل الشجرة نعرف طرفيها وترك وسطها ضائعًا أو مختفيًا عند نسابة ماتوا.. وأخذوا أختامهم، بينما الأفواه التي تعرف ما تحت الرماد لاذت بالصمت.. ولم يعد أحد منهم بإمكانه أن يريح رؤوسنا من تعب السؤال.. شربنا القهوة وخرجنا نلعق مرارتها.

قيل لنا؛ وكنا فرادى نهيم بطرقات الأسئلة، حاملين معنا عدة الزهو والضرورة الملحة لمعرفة بقايا الشجرة؛ إن الصيت قد اختفى تمامًا من ثنايا المدينة واندثر في ربوع ومضارب العشائر الكثيرة ولم يعد أحد يتذكر تلك الأحداث.. بل قالوا لنا: لا يوجد أمل في العثور على ذهن يقفز متبرعًا لقول دفن من سنين، قبل أن تتحول المياه إلى يابسة.. ولأننا حزمنا أمرنا، رفعنا أوراقنا الكثيرة التي دُون فيها تاريخ العشيرة والذي هو بالضرورة تاريخ المدينة.. رُحنا بادئين من جديد بسبك الكلمات ووضعها أمام الشيخ المنتخب في عملية الاقتراع التي حدثت قبل أعوام.. قال له كبيرنا:

- من يملأ الأوراق البيض لنا؟ ومن....؟

رفعت العيون أجفانها وتركت الحلوق فاغرة.. بينما سارعت أيادي من كانوا متكئين على (شبات) المضيف لتعديل أطراف اليشاميغ،

ينظرون إلى بعضهم كأن بضاعتنا كاسدة.. زعموا أنهم لا يعرفون شيئًا، غير الأسماء التي نعرفها والتي سمعوها من أبينا.. أما ما كان فلا يجدي السؤال عنه.. يكفي أن العمق العميق تمتد جذورنا إليه.. قالوا نيابة عن الشيخ ومرارة القهوة الفائرة تدور في حلوقنا: إن ارتباطنا موصول بالشيخ وعلينا تثبيت الهوية الجديدة، وفقًا لإجراءات الضم.. وإلا لن نحصد غير الخيبة. وأخبرونا، وهم يروننا بعيون مستطلعة كإجابة أخيرة: إن سنة من القحط إن بقينا هكذا قد تحل في ما بقي من مرابعنا وتأكل الزرع وتجفف الضرع، إن لم نلحق أنفسنا ونربط الحلقة الوسطى بآداب العشيرة. وحين ركزنا على ما خفي من الإجابة شعرنا أن زهونا يكاد يتبخر ويخرج إلى الأبد من بين (شبات) المضيف.

سمعنا أحدهم:

- ما نفعكم بالماضي.. أنتم أولاد الحاضر.. اتركوا جدكم بما كان وانتبهوا إلى من تكونون الآن.

ابتسمنا ساعتها كراهية، نصارع آلامنا، كابتين صراخًا في بطوننا الهاذية، مخافة أن ننتظر وقتًا آخر فيفرغ ممرنا الوحيد من إضاءته ونعود مفزوعين من قلة الأخبار، وثقل الأوراق البيض، وفي عيوننا تبرق من بين ظلام الإجابات رعب الوجوه.. كانت مبرقشة، تخفي دسائس رفيعة كأنها أنصال أظافر، وما بقينا لخمس ساعات إلا وكان المكان إبرًا مزروعة فوق السجاجيد اليدوية الطويلة، مستندين على وسائد قطنية صارت مثل أحجار صلدة.. كانت بي رغبة لأن أصرخ..

لكنني شعرت وهذا ما أخبرته لأخويّ.. بانطفاء قوتي لقوة الطنين الخارج من بين شدات القصب.. لكن أخينا الكبير دعك صمت المضيف ليصل إلى أعلى حالات التأهب.. فأسقط الأمر من بين أيديهم.. تبعه أخونا الأوسط وهو يلمح، إن الأوراق تشعرنا جميعًا بالنور الوهاج الذي تركه جدنا الكبير، في سراج لا ينطفئ.. طوقنا المضيف بالكلمات حتى لكأن صيهودًا مر فوق الرؤوس.

اكتشفنا، ثمة سر مخبوء كان ينسحب بصعوبة من أمامهم لينفرش في المضيف.. وقبل أن يتحول إلى غيوم تهوي على رائحة القهوة وينتشر السؤال إلى مضارب العشائر الأخرى، كان الوقت قاسيًا بالنسبة لهم.. حدثونا بشيء من التجريد عن جدنا الذي جاء ممسكًا لجام فرسه، يبحث عن أرض ترث اسمه وتكون ديوانًا ناصعًا بنواشي النهر الغارق بأمواج عريضة.. ثم كنا نعرف ذلك.. تحشرج صوتي ما بين فكي لأوصل علامة لمن هم يتناوبون على الحديث كأنهم متفقون على أخذ مقاطع من هنا وهناك.. فمددتُ يدي بمستوى الوجه لاستأذن كبيرنا بالحديث.. فأشار لي بإصبع خفي أن اهدأ.. وكانوا قد أسهبوا بكلماتهم حتى انتهى وطر الليل.. وفهمنا ما كنا قد فهمناه.. وجعلنا في حالة غبطة وفرح كبيرين من أن جدنا هو من أسس المدينة بعد أن بنى أول مضارب العشائر قرب ضفة النهر على يابسة ارتفعت عن النهر مسافة عشرين ذراعًا. حينها انبرى أخونا الأوسط بسؤال آخر جعل أسنانهم الغليظة الصفر كما لو كانت قد تهيأت لقضم الوقت أن تعود خلف الشفاه.

(هل كان جدنا الكبير طيب القلب.. إذ سمح للآخرين أن ينزلوا تحت جناحي عباءته كما لو أنهم من أصحاب الجناب؟)

ولم نسمع شيئا آخر.. غير همهمات تدوي في الصدور.. جحظت عيونهم وانتبهنا إلى إن انفعالاتهم صارت مفضوحة، وللحظة أشار أخونا الكبير إلى أن ننهض.. البحث عن مفتاح آخر خارج مضارب العشيرة بعد أن يئسنا من عقول الرجال الذين تركوا عروق أكفهم للكشف عن عمر البطولة.. وقد تركنا كلماتنا تجاهد لتبقى ونحن نغيب عن النازحين المتسيدين على صدر الأرض.. للشعور بأولي الأمر بعد أن ترك جدنا أجدادهم يحصدون الزرع ويرعون الغنم، فإن ما اكتشفناه يؤكد أن الخوف هو المجهول الذي لا يريدون هتك ستره ونخرج من بياض الأوراق للاستيلاء على عرش المشيخة من جديد، فما هو معروف أن الشيخ لا يولي إلا شيخًا من صلبه، مثل ولاية العهد التي انبثقت من زمن معاوية وبقيت تراهن على قوة النسل إلى يوم الدين.

• • •

قالوا لأخينا الكبير:

- إن جدنا الكبير ترك وصيته محفورة في رأس أولاده.. إلا أن البحر وهو يزعم فرضية الطاعة أضاع كل شيء من رؤوس من حملوا آخر تابوت يجمعهم إلى مثواه.

قالوا لأخينا الأوسط :

- كان التابوت مغطى بتلك الأوراق التي تثبت شرعية التمسك بالمفاتيح وعدم الركون إلى الخذلان.. وألا يهدروا صيتهم بالخوف من سيوف أو بنادق غدارة.

قالوا لي :

- كان الأولاد خائفين من ظلمات البحر والليل يفتح أبوابه لموكب التشييع.. أخبرهم الواشون أن خطواتهم مرصودة وأن العودة بعد أن يواروا جثمان عزيزهم مقبرة الأمير، لن تكون محفوفة بالتعزية العظيمة.

قالوا لأخينا الكبير:

- كان حَفَّار القبور يستعجلهم الدفن، ليتمكن من العودة إلى أحضان زوجه، فتركوا تلك الأوراق تنسل مع الكفن وهم يُنزلون الجسد النشمي إلى حفرته وأهالوا التراب دون أن يتركوا شاهدة على قبره.

قالوا لأخينا الأوسط :

- كان الأولاد خائفين من العودة.. فقد شعروا بعظم الهول.. وأن الهواء لم يعد صالحًا لصدورهم.. ومناجلهم لن تحصد الزرع وستبور تجارتهم فتفرقوا في أصقاع الأرض.

قالوا لي:

- عاد أحدهم خلسة بعد سنين.. يغني خلف جذوع النهر وإذ عرفوه ارتابوا.. وإذ اطمأنوا.. عرفوا أنه بلا حول وقبضته فارغة.. ربما كان هو جدكم الثاني.. أعلن البيعة للشيخ الجديد.. حذروه من أن مغادرة الصمت والنظر إلى منحوتات العشيرة ستكلفه غاليًا.

قالوا لنا:

- .....

أبونا بلع لسانه هو الآخر مكتفيًا بمعرفة جده الأول.. ولم يتقدم خطوة كأن شيئًا تحشرج في بلعومه، فمد لسانه ليسمع خرخشة الصوت من بين أسنان أحد النازحين.. أعانته يوم راح يبحث عن وظيفة في دوائر الحكومة الملكية فأعطاه اسمين وهميين دون أن يسأل النسابة عن صدق المعلومة.. وكأنه يريد مغادرة العشيرة التي لم تعد مكانه.. وظل صوت الاسمين يتصادم في آذاننا.. مائنًا أسماعنا برنين مخذول ربما.. وهكذا حسبنا الأمر أخيرًا.. إن أبانا هو الوحيد الباقي على ظهر يابسة الفرات.. احتاج أخونا الكبير أن يستدل على الطريق بعد أن تناهى إلى سمعه تلك الكلمات المكهربة التي تواءمت مع ما يعتري في صدره من حيرة أمام معلومة أبينا.. أراد أن يزيح الظلال السميكة وكان منفعلاً.. لم يدر بخلده أن ما يجده سيكون صعبًا.. تخثر السؤال في رأسه، وبدأ ينبش في أكباد الغياب، بحثًا عن مسامات تخرج له المعلومة الصحيحة، بينما بقيت أبخرة السؤال تتكاثف حولنا.

كان أبونا قد اعترف وكانت عيناه تملآن العتمة الرطبة أنه يجهل الأمر ولم تدخله الحماسة التي نحن فيها.. لم يجد أباه حيًا ليخبره فوجد نفسه خارج أقواس الراية المنتهية بناقوس صدئ.. ولم يشأ الحديث بعدها.. لم يلتزم أخونا الكبير بصمت أبينا فحثنا على استكمال رسم شجرتنا.. أبلغونا ألا نتعب أنفسنا فلن نجد من يعطينا

إشارة، مجرد إشارة، إلا إذا وجدنا من يرتبط بغصن من شـــجرتنا.. وترك لي مهمة ربط ما نسمعه ما دمت على استطاعة مـــن تفســـير الكلمات وتدوينها ولو بعد حين.

قلت له:

- إن العفاريت كثيرة كما أرى.. وأخاف أن نتبع الأحراش.

قال أخونا الأوسط:

- إن في الأمر رائحة الريبة وعلينا الهدوء.

قال لنا أخونا الكبير:

- من لا يفهم أصله لا يفهم نفسه.. واليوم نحـــن بـــأمس الحاجـــة لمعرفة شجرتنا.. الحياة تغيرت وعلينا إيجاد الأعمام لحمايتنا.

عصرنا أصابعنا حزنًا على فطرة أبينا التي أنسته أن جدنا الكبير ركب موجًا عاتيًا ليقول كلمته الصادقة ويفتح ذراعيه للنســـائم الحكيمـــة، والسؤال الذي شغل بال أخينا الأوسط، هو ذلك الســـر الـــذي بقـــي يصارع الغيب.. إذ ما كان لمياه النهر أن تطمر تحت غرينها العاري ما تروي به الأحاديث بينما الآخرون يتذكرون ظهور آبـــائهم حتـــى امتداد الأفق.. ومن أجله وأجلنا.. أردنا الجواب.. وذات مساء منعش طلب منا اجتماعًا ثلاثيًا وهو يدير قرص الهاتف وكأنه حصـــل فـــي زحام البحث على غنيمة تفك طلاسم الغيب.

- لقد وجدت حفيدًا لأحد أحفاد جدنا الكبير.. قال لي.. إن جدي يحفظ تاريخ الماء.

تشبثت قسماتنا في وجه الرجل الطاعن في السن، المصحوب بذاكرة عجيبة وقد جلسنا على أرائك وثيرة محاطين بوجوه لها سحنة سمراء كطلع النخل.. قلنا له:

- حدثنا عن جدنا.

سمعناه يُعيد رسم جداريات العشيرة وينظم الرقيمات حسب تواريخها مُنقبًا في أثريات الماضي.. يزيح ما تراكم من طمي الفيضانات ويستخرج ما خلفه الجفاف من لقى.. وإذ كان الترقب يفرقع في غرفة الضيوف بدت تلك المدينة الجنوبية أمامنا.. والتقت عيوننا بعيني الرجل، كان وهج الجد يتناثر على شكل حلقات تشبه رذاذ ماء منعش ينبعث من نافورة زقورية، ليتنامى داخلنا إحساس المدى الذي أبصره جدنا.. فارشًا ذراعيه ليلتقط مُريديه وأهل بيته وجَلَدته الحب الناضج، ويرمي القشور لتأكله فئران السراي.. وباسترخاء ما تبقى من الحكاية التي ازدادت فخامة.. استخرج لنا الرجل الكهل رقيمًا محفوظًا في ذاكرته.. وقرأ لنا:

- العثمانيون أرادوا دفن صرامته وأخذ بيعته وحبه للأرض.. نثروا الرمال لتتطاير الحصى الصغيرة وتضرب العيون وتملأ العقول عفونة.. وكانت يده طويلة، تصد الريح السموم.. وتبني تآكل الجدران.. وفر مزايا العزيمة أمام الرجال وقال لهم: امنعوا الهبات أن تذهب لأصحاب الطرابيش، وادفنوا مكائد اليهود واجعلوا الله بين أعينكم.. تركوا الغربان تحوم في البساتين وعلى جرف النهر وتنعق في عقول النازحين.. أعطوا مفاتيح السيادة لهم بعد أن استطاعوا

من كبح جماح هذا الرجل الراكب فرسه دومًا.. عندها أهالوا تـــراب الفضي..

قطع حديثه وإذ كنا في حيرة لم تزل تطوق رقابنا التي جعلناها رقاب البعران، لنصغي ما غاب من دهور.. فغرنا أفواهنا وما نسمعه عــن قبضة فاسدة لريح صرصر زؤوم وعجبنا كيــف يمــلأون الــرؤوس بكلمات تدور في المضايف والمرابع المنتشرة على ضفتي الفــرات.. ويقينًا أن ليلة الريح السوداء جعلت من الآخــرين يُصــدقون كذبــة أشاعت في الأثير نهاية الطريق إلى المجد.. بسبب الطمع وحب الجاه وحب اندثار هيبة جدنا لاعتلاء عرشه.. وقد تمكن الرجل الطاعن في السن من أن يدير رقابنا ونمد أكفنا إلى بقية الأغصان.

قال أخونا الكبير:

- جدنا بنى عشيرته على عضلة الفرات الربلة، لتكون مدينة أحالها إلى تجارة تُصدر التمر والحنطة والشعير إلى الخليج والأحواز والشام واسطنبول ذاتها.

أكمل آخر أحفاد الجد من غصن أخر حديثه:

- ليجعلنا نبصق صمتًا على جهة من ذراع بعيــدة.. كــان اليهــود أساس البلوى فهم يوسوسون في الصدور إذ سكنوا المدينة العامرة.. سرقوا التجارة برخص الأسعار وأباحوا الربا.. وحين حاربهم بحكمة الشيوخ الأفذاذ انصاعوا يرســمون دســائس العثمــانيين وتوحــدت المرامي فالغرباء يريدون المدينة قاسية وبليدة.. نضــحت حقــارتهم بالشراسة أوجدوا هدفا لتقليل الهيبة.

هطل الكلام ساعات ثلاث كأن اليوم السابع قد بزغ علينا لنستوي على ظهر المعلومة.. سطرتُ الكلمات في ذهني.. ريثما أدونها على أوراق تركتها مع قلم الحبر فوق منضدتي وأنا لم أزل مشدوهًا وحتى هذه اللحظة أمقت ما كان يمقته الجد.. وعينا أخوي تنظران إلى انتباهتي.

قلت لهما:

- وحين مرّ الزمن كانت رقيمات جدنا تتكسر بفعل النسيان، وتندرس العلامات وتختفي المنحوتات مع فيضانات العهد البائد.

شدنا ما سمعناه.. وراعنا ما رأيناه على الوجوه إذ كيف لأولئك الأعمام من تصديق تلك الكلمة المبتورة التي لم يكملها الطاعن في كهولته، حين قال نصفها وترك الحرفين الأخيرين بين أسنانه كأنه يضمر سرًا لا يفتضح، وإذ وصل الليل انتبذت نظراتنا مكانًا فارغًا بين الكلمات.

قال أخونا الكبير:

- والآن.. وأنت آخر أحفاد جدنا من ابنه الثاني، ونحن آخر أحفاد ابنه الأول الذي بقي على عضلة الفرات.. نريد أسماء أبناء عمومتك نزولاً لنا..

سقط المطر وملأ الثقوب في جسد الليل.. كنتُ قد جمعت أجوبة السؤال في حجري الدافئ وتركت لأخينا الكبير أن يستفهم الأسماء بينما بقي أخونا الأوسط يحادث نفسه.. من أن الحادثة ما كان لها أن تمر بصمت وأن ننتبه إلى مأوانا، فاليوم السابع قد حان طلوعه ولابد

أن نبدأ بشق طريقنا نحو قبر أبينا.. إذ كانت فطرته غير خاطفـــة.. وعند رأسه سمعنا صوته.. "اعبروا إلى نواشي أنفســكم.. عنـــدها تجدون الشجرة على باب المدينة من جهة الشمس".

مدينة النـار

- كأنّ التاريخ يعيد نفسه.

قال لي ذلك وهو يُعدّل من طرف يشماغه، ويستند بكوعه على الوسادة.. كنت مشدوهًا إلى الحد الذي سلبني القدرة على مواصلة الاستماع بصورةٍ متتالية والاستمتاع بحديثه. الضوء ينزلق فوق عينيّ الحمراوين القلقتين، ورائحة الشاي المعاد تثير في داخلي الاشمئزاز، لتصعد الحموضة المُرّة في فمي.. أنا المشدوه بالتاريخ.. باحثًا عن أصل مدينتي، مستودع أفكارها، رجالاتها، أحداثها، ماضيها وحاضرها.. جئته مستغيثًا لقلة معرفتي.. زوايا مظلمة ما زالت تئنّ في رأسي.. وما تناقله أبي من تاريخ مبتور، زادها ظلامًا.. كانت النافذة ترشّ هواءً رطبًا، وثمة نجمة في ظلمة الليل الشتائي الحالك أراها تسخر مني.. كنت أمامه عاري الرأس.. مشدودًا إلى مخارج حروفه الجنوبية وهي تتسلق ذاكرتي العطشى، لتعانق مرآتي العاكسة للضوء الآتي. محاولاً في الوقت نفسه، الاغتراف من ذاكرة رجلٍ جاوز السبعين، طائرًا على بساط الأحداث.. سمعت حشرجته، وانسلت رائحة الموت والدمار والخراب.. هل يُعقل أن تُمارس المدينة لعبة التاريخ وبوجوه تناسلت من رحم وجوهٍ ذاوية أو اندثرت وتآكلت عظامها؟ سؤالٌ أخذتْ فأسه تحفر في رأسي ويزداد عمقًا.

أطلق العجوز زفيره ليُعيد ترتيب أنفاسه اللاهثة ويشمّ (غليونه) المدقوق بالتبغ المغشوش.. بيدي كان يستقر الكتاب ذو اللون الأخضر.. قرأت له الجزء الذي أريده أن يحدّثني عنه.. الجزء الذي

قيل لي إنني رأيته قبل الآن.. في المدينة ذاتها.. هل أنا في حلمٍ معاد؟.

رأسي ثقيل صار مزيجًا من رائحة الشاي المحترق، ودخان تبغه الذي كاد يخفي النجمة الغافية بقلق مجهول.. يدور مع ريح شتائية، زاده الطيف قلقًا.. لا نعرف، إن كان يستغيث بنا أم نستغيث به.

فتحت له نوافذ مجسّاتي.. حذرًا من جرثومة تنتقل مثل أفعى، تجعل أفكاري تصاب بالزكام، وسؤالي مازال في فراغ الغرفة، قال:

- ألم يجبك أبوك؟

قلت له بصوت راعشٍ، خوفا من عصيانه أو خيانة الذاكرة المجعّدة.. (أراه واهن العظم.. بالكاد أسمعه وهو يبسمل ويقرأ سورة الفاتحة بصورة خاطئة.. كيف يسقي عطشي الجاف؛ هلعي؛ خوفي؛ اتزاني؛ اضطرابي؛ بحثي الدائم عن السرّ الذي يتكرّر في هذه المدينة وهي تتأهّب لسدّ منافذ الجوع؟)

- والدي يقول: كنتُ صغيرًا حينها.

- صحيح.. لا يتذكر إلاّ الطائرات التي أخذت ترمي علينا الصفائح الفارغة مع القنابل ليرتطم صوتها في رؤوسنا الخاوية من معرفة العالم.. لكننا لم نهرب.

وعدّل من وضع يشماغه (نصف عمره يقضيه مع يشماغه)، أحاول ألا أطيل عليه، وفي رأسي تطنّ صورٌ من اللامعقول.. أيدٍ أمسكت ببنادق بالية، عربات تجرها خيول هرمة، وجوه مكسوّة بنثار الشمس المحروق، وصبغتها ملوحة النهر، دشاديش ممزّقة الأذيال مهدّلة

الأكمام، نساء تلفعن بالسواد، (عصّابات) طوقت رؤوسهن، يدرن بوجوه لوّنها وشم أزرق كخرائط لأنهر فقدت منابعها وضاع مصبّها. صور متداخلة؛ متلاصقة.. يصعب التقاط زمنها.. أرجل راكضة بين البيوت، أفواه تلعن الحرب، أفواه تتضرّع إلى الله أن يتلطف بقضائه إن لم يَرُدَهُ، أفواه تصرخ: ألا يكفي عذابًا لنزداد عذابًا آخر؟.

لا جواب يأتي إلا ما يدور في الرأس من تخزين لأيامٍ ستشرق فيها الشمس بالمقلوب، رصاص يتسابق بلا هدف، حرائق، جثث مشوهة، جثث أحرقت، جثث قُطّعت، خوف، هلع، اضطراب، نهب، سلب، مجهولٌ قادم، معلوم مجهول، أخبار تزيد القلق قلقًا ونقمة.

- أجبني!!

سألته من زاوية حادة، رأيته يجلس باستقامة لم أعهدها فيه أبدًا.. سمعته يبسمل، يبتلع كومة دخان، سكونًا يغلي وداخلي يغلي.. والغلاء أصابنا بالفقر..

- هل كنتم ثوّارًا.. أم..؟

انتقض كمن لدغته أفعى.. اختفت تجاعيد وجهه إلى الحد الذي عاد فيه شبابًا.

- لم نكن إلاّ كذلك.. أقسمنا بالعباس والميثاق أن نطرد الإنكليز.. أما أنتم...

أدار رأسه باتجاه النجمة.. وظل صامتًا.

• • •

حدثني أبي عن جدي.. أنه استطاع ذلك اليوم الذي أغار فيه الإنكليز على المدينة لإخماد الهيجان العارم ضد وجودهم.. أن يحفر حفرة ويجلسه فيها.. فيما كانت الطائرات تبحث عمّن قادوا العصيان، لتفكّ الحصار عن السراي.. قلت:

- كيف كنت تفكر يا أبي؟

قال:

- أفكّر بالخوف الذي طوّقني وفسحة الضوء من تحت مؤخرة جدّك.

• • •

الليل موحش.. والريح تعوي، والبرد يشارك في رعشة الأجساد.. موسيقى الخوف تعزف ألحان الحرب التي انتهت ولم تنتهِ.. مطاردات الأقدام، أماكن المؤن تحوّلت إلى غرف النوم، الحرب حبلى وأزف موعد ولادتها لمولودٍ مشوّه، وربما سيبقى معاقا، أُحرقتْ السجلات في السراي القديم المطوّق برجال لا تعرف سحناتهم ولا أهدافهم، أطفال يلعبون بأغلفة الرصاص، وأرجلهم تغوص في الوحل الشتائي الكئيب، الشتاء مزعج والعام الجديد الذي ولد قبل شهرين أكثر إزعاجًا وحزنًا وألمًا في تقاويم السنوات الماضية.

قال أبي:

- بالضبط.. أحرقنا كلّ شيء في السراي، هكذا.. كنت أركض مع الراكضين لأحصل على أي شيءٍ بعد أن طردنا الإنكليز وعمّتك تُمسك بعصا جريد النخل تضرب بها من كان معهم.

وصمتْ.. كان يتأمل اعوجاج الأعواد والدقائق وصوت الحجر، أطنان القنابل ما زالت تعوي، بقايا الجسر كرجلٍ حديدي مبتور، يئنّ ويبكي هيكله المدلاة بلا ظل على صفحة الماء، كنت أتأمّل ورم ساقيّ الهاربتين من طي المسافات البعيدة بحثًا عن دفء مدينتي، وخوفًا من موتٍ يطاردنا، بلا عدالة.

• • •

ما الذي تقوله أيها المتحدّث.. الشمس تشرق دائمًا، أعرف أنها تغيب، ولكن من قال إنها لا تأتي؟.. الرياح تختفي وتأتي، إما غاضبة أو تمشي على أربع زاحفة على أجسادٍ بلّلها القلق، وكساها الملح.
(تعلمنا كيف نصنع الصمت.. وتعلمنا كيف نكبت الصراخ).
الأب: كان الرجال يبحثون عن الخلاص.. طوّقوا المدينة وحاصروا جنودهم في البراري وبين جذوع النخل.. أحرقوا كل شيء، انتقامًا من وجوهٍ أجملَ من قمرٍ كامل.
الابن: لذلك.. فهم يفكّرون بنا دائمًا.
الجد: كنا نحاول أن تصل أصواتنا إلى مناجل معطّلة لتحصد الأمان.
الابن: ونحن في منتصف الطريق بلا غناء.
(لا الصمت أمدّنا بالصبر ولا الصراخ استطاع أن يوحّد العقول)
الرجل الجالس قرب الباب كانت عيناه تزوغان إلى الخارج:
- لأنكم أحرقتم ونهبتم بلا تفكير.

الجد: لأنكم لا تعرفون مواقع أقدامكم.. الشمس والظل لهما مكـــان، لكن الشمس ثابتة والظل متحرّك.

الرجل الجالس قرب النافذة كانت أذناه تصيخان السمع خارج الضوء:

- نحن كنا ثوارًا نريد الثبات.

الجد: اختلطت الأوراق وتحوّل الإيمان إلى كلمات.

الأب: أنا في الوسط.. أعرف الذي مضى والذي حـــدث، ولكـــنكم لا تعرفون الذي سيأتي.

الرجل الملاصق للجدار كانت فرائصه ترتعش، فلا ضوء يسقط عليه، إذن لا ظلّ له:

- أنا لم أرَ.. لم أسمع.. لم أتحرّك.. دائمًا أفكر.

حوار في دوامة الدفاع والتحليل والتفسير.. فقاعات هوائية تنفجـــر كما انفجرت الحالة التي أعادت التاريخ بصورة مقلوبة.

• • •

وجوه الزاحفين إلى المدينة يتقاذفها البرد.. يشعلون ســـكائرهم مـــن توقد أفواه الآخرين.. وجوههم تتنازعها تجاعيـــد الهلـــع والمفاجـــأة وتعب الوصول، بيع الرمّانات اليدوية والرصـــاص علـــى الأرصـــفة المخسوفة كما يبيعون أكيـــاس الأرز، الأمهـــات الراكضـــات خلـــف أبنائهن.. أن ارجعوا، لا تسبحوا في الماء إنه سيبتلعكم، هل للخوف شكل أو لون؟، الحرب قائمة قيامة والناس قوّامون علـــى الرعـــب، مدينة غارقة في الحزن والخراب والحرائق والترقب.. وأنا العائد من

مسير ليلٍ وأيام، أريحُ قدميّ المتورّمتين بفقاعات الهواء، في إنـــاءِ ماءٍ، هو مالح من منبعه.. ما الذي حدث.. ولماذا؟

قال الجد: كان ملهمنا الميثاق واليمين.

قال الابن: كان تقدمنا هو مأساتنا.. نحن جيل كُتبت علينا الحرب.

قال الأب: نحن ورثة السماء في هذه الأرض.

قال الابن: أين هي السماء وأين هي الأرض؟

قال الجد: قاطعنا الطريق بالبنادق والأجساد وأغرقنا الاتصال وصعب على جيشهم الوصول (ضحكت.. قالها بالمقلوب).

قال الابن: رجاءً.. أنا أتحدّث عن المدينة.. كأنها مدينة من نارٍ ودم.. لماذا؟.

قال الأب: لماذا لا تفسر أنت.. أنتم أكثر ثقافة منا.

• • •

كان تلفاز يبُثّ برنامجًا عن الحرب وعن الانتخابات الأميركية.. خرج رأس الفأر بعينيه الزجـــاجيتين.. يقـــف علـــى رقـــاب المصـــوّرين والناخبين، ولسانه يرتجف من ارتعاشة الحروف.

(نحن لسنا ضدّ الشعب العراقي)

قال جدي: من احتلهم ذلك الزمان.. قالوا لنا ذلك.

قاطعه أبي: ولكني عشت الحياة.. لم أجد ريحًا تجفف عرقي، كـــانوا ينهبون الجلد ويكسون عظامنا كذبًا.

زعلت: أنا أتحدّث عما جرى، الآن وقبل الآن وقبل أكثر من نصف قرن.

قال جدي وهو يُعدّل من طرف يشماغه: القرن لدى الثور.. والثور هائج، دائمًا لا يستطيع الإنسان أن يمتطيه.

(ضحكت.. أعرفه لا ينطق عن غباء)

قال أبي: هي المدينة ذاتها، أهذا قصدك!! لكنه الجوع والحرب والبحث عن الأمان.

قال المتربّص قرب الباب: لكن لم يكن هناك احتلال.

قال الجالس قرب الشباك: هناك اعتداء، مؤامرة ضدّنا حتى لا نكون.

قال الذي لا ظل له: بتنا لا نعرف طعم النوم.

قال جدي: الإنسان مخلوق من اثنين.. بطنه وفراشه، إذا اختلّ أحدهما فقد القدرة على ترتيب عقله.

غضبت: يعقل أن تكون للمدينة نفس المصادر وأن تكون كأنها آخر مدينةٍ هنا وهناك؟.

قال جدي: أتغضب.. الإنسان مخلوق من مادتين.. العقل والروح..

قاطعته: أريد موادًّا.. أريد تفسيرًا.. أحداثًا..

حدّثوني بالعقل والروح..

البحر.. أعماقه، مقياس موجاته.

الشمس.. فوق هاماتنا مقياس حرارتنا.

الظلّ.. قصير، مقياس صبرنا.

الورد.. ذابل مقياس رائحتنا.

الحب.. تفانى وفنى، مقياس أهوج.
الخبز.. قليل، مقياس انتفاخ البطون.
البطون.. منفوخة، مقياس مقدرة الهواء على المرور.
الهواء.. ملطخ وذو رائحة، مقياس حربنا.
وكل المقاييس غير ثابتة، لأن الزمن ضائع.

نظرت في وجه جدي المدمن على الصمت والبوح بنظراته.. وعقلي يئنّ من عطشه.. لا جواب شافٍ يبلّل الأطراف.. نظرتُ إلى الكتاب.. تطايرت أوراقه في الفضاء، كأن البيوت فتحت له أبوابها، قلت للجد:

- ماذا كتبت علينا الحرب؟

قال: عليك أن تؤمن بحكمته.

- هذا لا يكفي، النار تأكل كل شيء.

صرختُ بأعلى صوتي.. لا جدوى.. فهذه المدينة أريد لها أن تكون إما ملعونة أو مأمونة للدهر القادم.. وفي كل الأحوال لها تاريخ من نار ودم.

زاغت عيناي باتجاه النجمة الضائعة خلف غيوم آذار(مارس). وعرفت أنها مقياس لبريق منتظر.. فلا طائل من المكوث في جحر من حجر، وعليّ الإمساك بالضوء والظل.. وأن أتابع الأوراق التي دخلت كل البيوت.

الجنوبي

حمله بين ذراعيه، ودار به نصف دورة، ثم عاد إلى مركـزه ليعيـد نصف دورة أخرى باتجاه معاكس، وسـط ذهـول الحاضـرين فـي الغرفة.. لم يكن وجهه غريبًا عليهم.. ألفوه مثلما ألفته المدينة لكنهم كانوا غرباء بالنسبة له..

تقاطرت الغيوم لتغطي ما بقي من سواد عينيه.. خـاف أن يتسـاقط المطر علي بور خديه.. يحس أن نبضات الطفل الصغير تضرب على قلبه.. شعر ولأول مرة أن قلبه ينبض وفق إيقاعات سريعة.. أطبـق رموشه ليحبس الغيوم، فتسربت قطرات من بـين أجفانـه.. بلعهـا بلسانه الذي بدا أطول مما يتصور.. انتابه شيء غريب، يصرخ بـه يدعوه إلى حفلة خاصة.. أضواء لامعة وموسيقى تنبعث من داخله.. تأتيه من أماكن قصية.

وضع ذراعيه حول ظهر الطفل مثبتًا صدره على الهيكل الغض ورفع ذراعه الأخرى لتخرج إبطه المشعرة من خلال فتق دشداشته، تاركًـا أصابع كفه مفتوحة، غاص رأس الطفل الصامت بين كتفـه ورأسـه الكبيرين وبدأ بالدوران.. دورات بطيئة؛ كاملة؛ متقطعة؛ تعتمد علـى حركة ساقيه الربلتين وهما تتحركان في مسـاحة صـغيرة.. دورات مراوحة لا تتقدم قدم على أخرى.. حركات متناسقة قدم تتبـع قـدمًا ولهاثه ينظم رقصته معطيًا حرية لرأسه أن يرتفع إلى السقف ليعـود إلى إضمامة رأس الطفل.

العيون.. عيون الجالسين الستة ترقب حركاته، غير مصدقة لما تراه. كانوا في دوامة الحيرة سابحين في فرح يتيم ينظرون إليه بعاطفـة

ريانة.. إنه أخيرًا اجتاز نفق اللامبالاة، جاء ليشرب نخب وجوده المعطوب ويزيل صدأ الحزن، قبل أن يقضي الله أمرًا بعمره الذي جاوز عمر أكبر الجالسين إلى الضعف.

الفتاة الجميلة بعينيها الحمراوين تمنت لو شاركته الرقص؛ أن تحضنه بين ذراعيها ليكون رأسها قريبًا من رأس الطفل على كتفه الثانية، وتستنشق رائحة كانت تشعر بمرورها قرب أنفها ولم تستطع الإمساك بها.. بينما ظل الشاب الوسيم وأبوه يداريان عبرة كادت تخنقهما.. لا يسمع إلا لهاثه ولا يرى إلا وجهه الذي برزت فيه التجاعيد وكأنها تنفر دمًا محصورًا.

هبت ريح الانبهار وتصاعدت حمى الاندهاش لتسير خلف حشد كبير، حشد موصول بآلاف الصور المتلاصقة التي تدعوه إلى انعتاق الفرح وتوزيعه على تغضنات جسده مما زاد في حمى الرقص وسط الغرفة.. التصقت الجدران وتناثر غبار جسمه في زوبعة الدوران المتناسقة.. قدم لا تسبق قدمًا. حاول الأب أن يدعوه إلى الجلوس قبل أن يدوخ.. أرادت الفتاة أن تدرك لهاثه المخنوق ريثما تشبع من رؤيته.. بينما الشاب مد ذراعيه ليلتقط الطفل من بين ذراعين كبيرين قبل أن يرميه الدوار إلى البكاء.. أرادوا أن يقف الرقص و..

حين فتح عينيه اصطدمتا بعيني الفتاة الجميلة، عينان تشبهان عينين تسبحان في دائرة من ضوء كانتا تملآن عليه الحياة وتشعرانه بوجوب البقاء. اعتصره سيل البكاء وتلاشى صوت الطبول هاربًا من النافذة بينما بقيت ذراعه مرفوعة إلى الأعلى ليكمل دورته الأخيرة.

نازفًا صديد وخبث السنوات العشرين من عمر الفجيعة التي تحمّلها بصبر لا يشبه صبر الأرض الهشة أمام الأمطار والأعاصير.. الدهشة الغامضة أو الدهشة التي تحمل أسرارها جعلته طائرًا في مشيته راقصًا؛ ليكون علامة من علامات المدينة المميزة.. ينتزع الكلمات الرنانة ويقذفها في الوجوه دون حساب.. حين ألتقيه لا أناديه بتصغير اسمه.. أشعر أن مثله لا يمكن أن يكون محبوبًا لمجرد جنونه العاقل.. كان يرتاح لي ويبتسم لكلماتي. (كيف الحال يا مثقف مدينتنا الصغيرة؟).

ينبري بهز رأسه ويرسل لي قبلة ثم يولي هاربًا في الأسواق.. أراه يطفق بجناحيه.. لا يرغب أن يستكين محتجًا، يتناثر زغب الحزن حول خطواته فيدثره بلسانه حين يرمي ما علق به في الوجوه.

لحظة سماعه للخبر الذي همس في أذنه ظل في البدء صامتًا.. توقف كل شيء في رأسه وبدت رقبته منزوية في تغضنات طرأت عليه.. بان عمره الحقيقي كرجل عاش لمائة عام دون أن يشكو من ألم.. وبخطوات وئيدة، إيقاعها مبعثرًا، مشى باتجاه مرسوم لامس عن كثب مزيجًا من ضباب تسربل من العناد وانزرع بين حقوله الصمت لينمو أشجارًا لا تثمر.. أفكاره متسارعة والأسئلة تتناطح، ورأسه بقي غائصًا في رقبته المتغضنة حتى لكأن التجاعيد قد استوت على الرحاب الواسع لطلع النخل والشمس تضرب وجهه مما جعلني أتساءل: ما الذي حدث له؟ تابعته بنظرات مستفهمة وقد سقطت سيجارته ومص إصبعيه ليمص كويتها، وحين أحس بوجودي التفت

إليّ في ثنية غائرة في عمق الحيرة، كأنه يتوسل أن يثبت أجنحة الجنون.. أشرتُ إليه أن يهدأ.. فشع ثغره عن ابتسامة مدفونة كاد ينطق بعدها لأساعده على لملمة السعادة.. طقطق رقبته واتجه نحو الباب الذي لم يلتفت إليه في يوم ما ولم ير لونه.. بل حزم أمره ألا يدخل من ضلفتيه الخشبيتين. رأيته يرفع كفه.. مرتعشة كانت، وعيناه ما زالتا باتجاهي.. كانت ذراعه ثقيلة فارتطمت بجانبه وهبط جسده ليقتعد عتبة الباب الإسمنتية.. ليخرج سيجارة جديدة وراح يراقب شكلها الأسطواني. ناديته: "ادخل يا رجل باسم الله".
رفع إبهامه الخارج من كف مكورة بادلته الحركة كأنه ينتظر تشجيعًا. وحين هب واقفًا يُعدّل من استقامة ظهره ضرب الأرض بنعله الممزق.. لابدأ بمسك الخيوط وسبك الكلمات لأوزعها على خارطة حياته التي حدثني عنها الآخرون.. وكنت أصغى.

كان ذلك الصباح البعيد؛ الصباح الذي وجد فيه زوجه ميتة، صباح الجنون. لم يبك رغم أن قلبه قد تصدعت تجاويفه وتوزعت أشلاء رأسه في الفراغات.. خرج إلى الناس حاسر الرأس والابتسامة تعلو وجهه.. يركض في الشوارع مناديًا إن زوجه ماتت بعد حب عرفته المدينة، مثلما شاع خبر الزفاف الذي ظل يرقص في ليلته حتى الصباح ملقيًا خُطبهُ على مهنئيه.. إن الحب في هذه المدينة شيء مقدس.. أيها الناس تعلموا كيف تحبون وكيف تصبرون عندها تفوزون ولو بعد حين.. في منتصف السوق عند الساحة الدائرية الوحيدة التي تُفضي إلى شوارع أربعة تجمعت أشلاؤه وراح يرقص..

يرفع ذراعًا ويضم ذراعه الأخرى على صدره بينما انشغلت قدماه بالدوران التتابعي.. مارج الرقص يخرج من مسامات جلده حزنًا بإمكانه لو هدأ لحظتها أن يفجر رأسه، مما جعل الناس يصيبهم العجب وراحوا يتساءلون ما باله يرقص وزوجه ميتة وأولاده يبكون وسط الجدران؟ أرادوا تهدئته وانتهى بالشمس أن تكون في كبد السماء.. لم يتعب بل لم يكن يشعر أنه كان يرقص أمام النعش، وحين انطلقت السيارة الصغيرة إلى المقبرة جلس قرب النهر بنصف دائرة من الأجساد تركوا الشمس خلف ظهره.. ابتسم ومص سيجارته ووقف على سور النهر الإسمنتي ونادى: (الآن أيها الناس الأحباء.. من يريد أن يتبنى أولادي فأنا أهبهم دون مقابل).

حسبوه قد جن وعرفوا مقياس حبه.. لكن كلماته أحاطتهم بحيرة وقد نبتت شفاههم في الأرض.. غافلهم يركض فوق السور ترقص فرائصه ثم عاد إلى نصف الدائرة.. (أنا لا أنفع أن أكون أبًا أنا إنسان طائر لا نفع لي في هذه الأرض). ظلوا مشدوهين مترقبين أن تهدأ سورة الرقص.. حلق في الهواء ليرتطم بالماء.. استوى بظهره هادئًا مادًا ذراعيه مثل جثة طافية وبدأ يغني.. قال أحدهم:

- لنلحق به.. النهر عريض سيأكله الرفش

قال آخر:

- لا تخافوا عليه.. عليكم بأطفاله

انسلوا من صمتهم الواجم وأعادوه إلى الضفة، همسوا في أذنه أن أطفاله توزعوا على بيوت ثلاثة.. عندئذ انحنى لهم مكبرًا فعلتهم

لأنهم منحوه حريتهم المتخفية تحت ثيابه وحلف ألا يدخل هذه البيوت ولا يريد لأحد أن يدله عليها.. عاد الناس عند انحراف الشمس وتناقلوا حديثًا آخر حين تدربوا على النظرة الموحية لمواجهة العجب.. إذ ذكروا في مجالسهم أمرًا ستتوارثه السوالف لحين لا ينضب.. أنه بعد انفضاض الجمع وكان جسده يرتعش، يمّم وجهه شطر السوق المسقوف، وقف أمام محل تاجر بخيل ونادى بأعلى صوته:

- أيها البخيل.. لن يمسني الضر ولن أبقى مثقلاً بهموم إيجار بيتك المرطوب بعد اليوم.. فالأرض كلها بيتي والسماء مأواي.

أضافوا إجابات أخرى على أسئلة المستمعين أنه رمى مفتاح البيت في بالوعة المياه الثقيلة وألقى شِعرًا لم يسمعوه من قبل.. تعالت الضحكات وضحك معهم وفعل حركة جعلت النسوة يؤكدن على أن هذا الرجل مخبول لا يستحي.. وقف في وسط بضاعتهن المعروضة على الرصيف وصاح بهن:

- إن الكلاب تحيط بنا وبي من الغاوية ما يكفي لطرح عشر نساء منكن دفعة واحدة إن لم تضعن ألسنتكن بين أفخاذكن.

وكان البدء باستخراج لسانه.. يذرف ما يقوله بلا خجل وفي أي مكان يكون وخاصة.. في كل مساء ينتظر أن يأخذ الليل هدوءه من صخب المدينة لينام.. يفترش أريكة عارية لإحدى المقاهي طاويًا ساقيه.. مخلفًا المنازل دون أن يعود إلى الوساوس أو يرتاب من أية نأمة.. كان يشعر وهو يواجه النجوم أنه في أحسن حالاته.. وإذا ما

أعجبه الليل يضع ساعده تحت قفاه ويبدأ بالغناء ردحًا من الزمن لتهب عليه نسائم باردة، تخلفه نصف راقص نائم.. مخبئًا نصف حزن العالم بين ذراعيه وحنجرته.. كان صوته يدخل البيوت مثلما يدخلها نهارًا من أبوابها.. صوته يعلوا جدرانها وتتراجع الأصوات الأخرى.. يضع الأغراض أو ينقلها.. يشرب الشاي ويتركونه يخرج متى يشاء متنقلاً من جيب شارع إلى آخر، كأن ظلاله المتراقصة تمنحه قدرة من انتعاش يطرد فيها شياطين حب الحياة.. متحولاً إلى رجل لا أبالي يزفر بوجه الكآبة.. ثم يتجشأ ليلهج بتعاويذه الخاصة.

في صباح آخر بعد سنوات خطفت عيناه نعشًا دخل المدينة، كان يقتعد مدخل السوق المواجه إلى النهر يحدق بحجر الفضاء.. يدخن سيجارة منتظرًا من يناديه للعمل، كان صامتًا واجمًا لم يبال بحشد الناس السائرين خلف النعش، فقد تعودت عيناه كثيرًا على رؤية مشابهة.. وقد تبع نواحه الداخلي، همس أحدهم بأذنه: (هل تعرف هذا الشهيد؟)

تداعى إلى داخله.. كان فارغًا.. أطرق نحو الأرض كأنه لم يسمع شيئًا.. وأثر الناس المرسوم خلف النعش يقف عند باب من البيوت الثلاثة.. أدخل يديه في جيبيّ دشداشته العتيقة وارتمى مستويًا على ظهره.. هناك كان الغناء مأواه.. تاركًا فرصة للتخيل.. يقرب صورة لم تفارقه كلما آب إلى السكون أو الغناء.. تجمعوا حوله يواسونه بالصبر الجميل..
صاح بهم: أنا لست بأبي أحد منهم، إذن أنا لا استحق التعزية.

وراح يضحك مؤثرًا مرحه راميًا شوائب محنته حتى لا تثور عواصفه.

يشعر أنه ماسة سقطت في ساعة نحس.. وجعلت الريبة تعشش في رأسه.. أنه ولد في المكان الخطأ في عالم فادح بالأخطاء.. وكان الهروب من توازنات العقل طريقًا يفضي إلى الشعور بالاحتجاج والعيش بلا رقيب لئلا تُظلم الدنيا في عينيه وتموت مسرته الخاصة.

كان مشهده وهو يهرب إلى النهر حديث المجالس التي أخذت عافية الحكايات إذ ذكروا سابقة مشابهة حدثت قبل أعوام حين انشق الصبح على أول نعش يدخل المدينة..اشرأبت الأعناق نحو السيارة،واقتربت الأفكار من معرفة مدى سُمك الغبار الملوث بالبارود.. وأصيبت الشوارع بزحام الأرصفة، ماتت منبهات السيارات وقطعتْ ألسن الباعة وتدثرت البائعات بالذهول، أفرغت المحال والمقاهي والمطاعم من روادها، أنزلوا النعش الملفوف بالراية، احتشدت أكتافهم موكبًا مهيبًا تتناقل أذرعهم الجثمان من طرف الساحة الدائرية حتى أدخلوه في البيت الأول ليبدأوا العزاء..

ظل جالسًا في مكانه الأثيري قرب النهر، لم يتحرك.. أخرج سيجارة ومدد جذعه واضعًا ساقا فوق ساق.. هبوا إليه يؤخرون قدمًا وينقلون أخرى.. ماذا عساهم يفعلون؟ ضربوا كلماتهم في أذنه بهدوء لتفادي صدمة تُطيح بما تبقى من عقله أو يصاب بجزع فيلطم كما النسوان، أو يحط عند قدميه قلبه المضرج بالفجيعة.. وإذ تشققت شفاههم من هجير الموقف؛ رأوا طائرًا يخرج من جسده

مارحًا غير متهالك.. يقبل الدهر الذي سار عليه بتــؤدة اللامبــالاة.. عجبوا من قدرته على الإمساك بذرات الخديعة بينما عقولهم مشغولة بمشهده.. بادرهم بأن قفز إلى النهر يخوض بالماء الساكن وهنــاك بدأ الغناء، تاركًا وراءه أخاديد الأرض لمن يتبعها.

نهض جسده من الأريكة مع صوت صياح الديك الأخير.. حملته ريح الغبش نسمة رقيقة.. واندفعت به نحو الساحة المكشوفة للفضــاء، صفعه الهواء الرطب هابًا من جهة النهر، مُزيحًا غبار الكسل المتكوم من نعاس آخر الليل.. شعر برغبــة عارمــة للاغتســال، أن ينــزع ملابسه ويخوض بماء النهر حتى يتعب..

زمان مرّ، لم يمر عليه موسم حصاد ما تراكم على جسده من أعشاب بريّة، ضيعت عليه تزيين جناحيه الهابطين بفزع خنق آهاته.. ترقرق موج النسائم العليلة في عينيه, واندهش بما وجده في رأس ليبقيــه مسحورًا من شيء يلح عليه أن يفكر.. له صوت صــهيل وصــليل وقرع طبول ومزامير.. أسمع نفسه الكلمات المرتجفة فــي قحفتــه فعرف أن أمرًا ما قد مر عليه في الحلم.. استرق السمع إلى رأسه.. كان وحيدًا وآذان الفجر لم يصدح بعد، كانت التفاصيل المنبرية أمامه ومن خلال غشاوة خفيفة، انتبه إلى أنه كان يرقص رقصة أداها مرة في صباح بعيد.. هز رأسه ليطرد رغبة الرقص، في هكذا وقت يتكل الجميع من أهالي المدينة على الله ويبدءوا الصلاة.. إذ دهمته طبول أخذت تقرع في صدره ليتصاعد صداها في تجاويف جســده.. رمــى بالأصوات أمامه وركلها بقدمه الحافية.. فتحول صداها إلــى مطــر

يسمع أنغامه تنشد البشير وتصدح به جدران المدينة.. عرف أنه منقاد بلا إرادة إلى شيء لا يريد معرفته، وبقي الحلم ممسكًا بتلابيبه، عاد إلى الأريكة ومدد جذعه الكبير وعاف أن يأخذ قرص خبز من فرّان المدينة ويشرب الشاي عند بائعة القيمر كما يفعل كل صباح.. توارى خلف نعاس أجبره أن يحط فوق عينيه.. تاركًا ابتسامة التصقت بثغره وغيّرت تجاعيد وجهه، أيستطيع الفكاك منها برغبة النوم؟.

تراءى له وجه زوجه بارزًا من بين عجينة الصور المخلوطة، أمسك بأول خيط من بياضها ولفه حول يده وثبتها تحت رأسه فجاءه صوتها عذبًا.. لحنًا يشي بنعومة وخدر.. خارجًا من فمها الذي يشبه قطعتي كبد خروف.. كانت عيناها معاتبتين واضعة إياه في كمين الحب.. لتريه من خلال عينيها ذلك الضوء المتسرب من يديه.. تدعوه إلى مغادرة مكمنه والتشبث بالحياة، كانت يدها تومئ نحو مكان لا يبرز منه إلا باب خشبي.. أفلت الخيط من معصمه.. مدت يديها إليه.. تمايل بين ذراعيها وكان يرى لحظة سدول جفنيه صورة أخرى لكلاب نابحة تحيطه.. كلاب تحدق به لتجعله مبهورًا بخوف تصطك له الأسنان.. يلوذ بغنائها المالئ للبيت، تيسر له أن يدس رأسه في حجرها.. لاحقته الكلاب.. يقع مغشيًا عليه وحيدًا في البراري فلا يرى غير أسنان ضباع تنهش بقايا الحضن الدافئ.. ينبري مدافعًا عن الحضن وهي تتوسل به أن يحمي ما تبقى له.. ويدها لم تزل تُشير إلى الباب الخشبيّ.. وقف وسط الحوش.. راسمًا

ردة فعل معاكسة ويصرخ بها.. موجهًا كدره نحو الجدران في محاولة للإفلات.. يجد على كل الجدران صورة زوجه ويدها الممدودة.. يهدأ تمامًا.. تختفي الحيوانات في البراري.. مقعية في مستنقعات بعيدة.. متخذة هيأة التربص لاقتناص لحظة باقية.. لتنهي ما حفظ له بين الجدران..

وجد نفسه ثائرة بطريقة اخترعها كلما احتاج إلى تعبير.. غنى بصوت عال مع صوت الصنوج والطبول والمزامير.. بينما فمه ما زال مندسًا بين تجعدات الحضن في حفرة لا تتسع إلا لأنفه كقناع يختفي تحته ريثما يطرد لهاثه خارج حدود الصدر.. فتعاد الصورة من جديد مكرورة.. لم يدرك بعدها ما الذي حدث إذ واتاه النوم لكنه ظل يتذكر قبل أن يتثاءب أخيرًا أنه قال لها: (لا اعرف ما أفعله بعدك..).

كانت الشمس قد خرجت من خلف النهر، صعد نصف قرصها فوق قمم النخيل، الناس الذين تقاطرت أجسادهم أصابهم الذهول وهم يرونه نائمًا.. لم يره أحد من قبل أين ينام إلا العسس الذين لا يتحدثون عن أسرار الليل.. وحسب هؤلاء الناس أنه لا يذق طعم النوم مُطاردًا بصور زوجته أينما يولي وجهه.. عقابًا على رقصته في يوم وفاتها.. حسبوه ميتًا.. كان مكورًا ركبتيه قرب رأسه كاشفًا عن سرواله الطويل.

شعر بيد حانية توقظه فاستل رأسه من حضن زوجه وبقيت يدها الطليقة ترسم اتجاهها.. فتح عينيه فرأى شابًا وسيمًا يقف قبالته،

ورأى صاحب المقهى يرش الأرض بالماء والناس يواصلون رواحهم وغدوهم.. فهب مسرعًا ليُدخل قدميه في نعليه وعيناه تستفسران عن الشاب الذي سارع إلى الهمس في أذنه.. ضربته الكلمات وأحدثت ارتجاجًا في تجاعيده وبدأ يسري في عروقه وما زال الحلم معلقًا بتلك الذراع الممدودة.. الشاب الوسيم تهيأ للإمساك به حتى لا يذهب إلى النهر ويخوض في الماء ويغني لكنه فوجئ به يبتسم ويستقيم في وقفته ناظرًا إلى قرص الشمس المرتفعة عن قامات النخيل بمسافة ثلاثة أذرع..

لحظات مرت ثم أفلت يده من قبضة الشاب وأعطى ظهره للنهر دالفًا إلى السوق إلى المكان الذي رقص فيه قبل عشرين عامًا يرافقه صوت الدفوف والمزامير والطبول وصوت هلاهل يأتي من بعيد ويقترب من أذنيه فراح يرقص حاضنًا ذراعًا ورافعًا أخرى.. يدور في مربع صغير.. قدم لا تسبق قدمًا وضحكه يتعالى.. غنى بكلمات جديدة لها موسيقى متناغمة مع الرقص وصاح: (لم أعد وحيدًا يا أحباء مدينتي).

الناس الذين تعودوا شروده تجمهروا حوله.. شاركه بعض الشباب فرحته.. ثم خف سريعًا خلف الشاب منسلاً من حلقة الرقص وصوت التصفيق، كأنه تخلص من لزوجة الحزن، وبدأ يوزع قبلاته على مصادفيه.. أعياه الفرح فجلس حائرًا ماذا يفعل.. كنت انتظر أن يكمل حكايته وحين خرج هو والطفل.. كانت يده مرفوعة وقدماه تدوران

في كل شبر، يبحث عن وجه ليخبره.. رأيته يخف نحـــوي صـــارخًا: (هذا حفيدي.. يا صديقي الرائع.. هذا حفيدي).

آثرت أن أتركه لفرحه وأنا أســحق بقايــا ســيجارته علــى العتبــة الإسمنتية للباب الخشبي المفتوح.. كانت كل الأبواب مفتوحة لسماع صوته الجديد..

ولم أزل أرقب رقصته التي دارت رحاها في الشوارع.

ما لم يقله النهر

لم أعد أسمع شيئًا.. الأصوات التي تضرب أذني، الأفواه التي تنفخ في وجهي، الألسن التي تمتد لتنشر حروفها على ضوء الشمس.. ضاعت الصور أمام عيني الحمراوين، وأنا أقف مبهورًا أمام أطلال ينبش تاريخها في ذاكرتي باحثًا عن الماء لأرتوي حدّ الثمالة.

استمعت للآخرين عبر أفواهٍ قلقة، كان كل شيء صافيًا مثل ماء رقراق، أتوغل عميقًا إلى عالم طفولتي البريء إلى ثنايا ارتعاشي الأولى، مفتشًا عن لحظةٍ مدفونةٍ في بطن الزمان تتحرك بعشوائية، مثل ذرة سالبة في وجه سالب، حتى لكأنني أرى أشجار مدينتي وقد تخلت عن الاخضرار، وتساقطت أوراقها في وحشة الليل، وتآكلت الأكتاف، وتحول التراب إلى أشواك عندما هربت المياه إلى مجرىً آخر، ليبقى النهر يُطلق حسراته إلى النخيل التي أخذت تذرف دموعًا من الشمع، وعذوقا أكلها الدود، وجذوعًا منخورة، واحدودبت ظهور الناس ألمًا وحسرة و.. لماذا تغير مجرى النهر؟ النهر الذي أحبته المدينة، تركها تمشي على أربع عكازات في اتجاهات متنافرة، حاول أن يسجل تأففات من استمع إليهم.. وجدها تزيد على كل أطرافهم.. الأفواه هاربة من الإجابة، والآذان لا تريد الاستماع، والوجوه صفر كالحة.. المدن المبنية على النهر تزدهر فيها الوجوه، ومدينته أصابها العقم.. هكذا رآها، ليجد نفسه خارج تاريخها الغافي على ذكريات غاية في الأناقة.. كان يمشي مزهوًا بين تواريخ المدن الأخرى.. حمل الكتاب ذي اللون الأخضر، وجاء إلى مدينته التي تركها مرغمًا في غفلة من عوز الحياة.

كان نهرها ذا عينين تجريان ماءً صار مالحًا فوق وجهه يندلق رذاذ الرمل، وثمة هدوء لظهيرة قائظة، يحيط برأسه.. والحفر تبتلع الرمال، لتشكل أكتافًا جديدة لمجرى يُغذي دود الرمال البعيدة.. ومرآة ذاكرته تزداد غبارًا. يركض على جرف النهر، يسابق الريح، وصديقه ذو الأنف الطويل والشعر الواقف يخاف النهر، وهو خائف أن يأكله (الرفش).. يضحك ويرش الماء عليه.. ويصعد راكضًا إلى الجنوب ليصطاد على جرف بعيد بعض السمك أو الديدان الصغير..

آه.. آهتي لا تستطيع إخماد جذوة بدأت تتوقد.. ما الذي جاء بي إلى هنا لأسكن في دهليز مظلم من تاريخ أحمله بين يدي، تاريخ أشعر به أنه يمثلني من قبل، واختار مكاني لأيام ثلاثة بحثًا عمن يجيب على أسئلتي، سألت أبي:

- ما الذي تتذكره من المدينة والهجرة أكلت طيبتها؟

أوقد سيكارته وفرش كلماته الجنوبية ليلتقط الحروف:

- لم تكن إلا امتداد الذراعين.. تلمها متى تشاء، لتشعر بالدفء والبرودة معًا.

أتلقف كلماته الموجهة وأبي يشعل سيكارته الثانية.. ليبتلع الدخان ويبدأ بتعليب الكلمات في ثنايا ذكريات راعشة، أوهمها الرحيل إلى المجهول، لا مرآة له.. أخذ مكانه فوق تلة رملية متوسلاً بقناعاته أن تقبل تغير لون الرمال إلى تراب على حساب تراب مدينته، أيموت التراب ويتحول إلى رمال تطمر أسرابًا من أنسال تكاثرت من ظهور وخرجت من بطون ودفنت حبالها السرية بعد لحظة الطلق في مياه

النهر؟ هل انتقل النهر طائعًا مطيعًا لحفارات عملاقة ليبقى قاعًا خاويًا إلا من أشواك وزبالة الباعة المتجولين وبول المتسولين وقناني السكارى.. ومياه راكدة حزينة على أمواجها الهاربة؟

أصغيت إلى أبي.. مفتوح العينين:

- كان النهر حنونًا على المدينة يملأ أواني القلوب بالمحبة.. وتزداد الوجوه نضارة كلما هبت نسمة ريح منعشة.. سحق عقب سيكارته، اقرأ الكتاب وأنت تعرف تاريخ المدينة.

كل شيء واضح في ذاكرتي إلا النهر، وكل شيء حزين على النهر والتاريخ الذي أحمله بين أصابعي ينتقل بين محطات متلألئة.. ليكون منارًا للباحثين عن نشوة انتمائهم، أغوص في أحزاني الجديدة التي تخز ذاكرتي برؤوسها الشوكية الحادة، أنظر إلى جسد النهر المكشوف الأضلاع، مُمعنًا في تجاويفه البارزة.. أصفن كثيرًا.. أتمعن.. أتلاشى، بينما كانت عيناي مثبتتين في بطن النهر الخاوي. سرعان ما يغتالني الوعي ويغيب رأسي داخل انتقالات وحوارات مثيرة.. يرى الماء يخرج فجأة.. بدأ رويدًا رويدًا يبتسم.. يفيض قلبه.. يصفق في قفصه الصدري.. يمد ذراعيه إليه، في بادىء الأمر يصعد مُبلِلاً حوافه اليابسة، يتجمهر الناس.

خرجت النساء من بيوتها كأنهن يردن السباحة. أو يرمين حبل سر الطفولة الجديدة في الماء كما هي عادتهن. والماء يزداد ارتفاعًا، يراه يفور في داخله تتراقص أمواج غير اعتيادية.. يمعن النظر.. إنه شبح الغضب الرمادي.. رآه كأنه ينهض من نومته الطويلة، يقف

بقامته، وتوقف الجميع يأكلهم الذهول ينظرون إلى السماء، إلى قرص الشمس.. لم تكن الشمس تشكو كسوفها..

فجأة قال رجل كبير السن:

- إياكم ولعنته.. لأنه لا يصمت. تركتموه يئن في قاعه أسير حسراته، دون أن تذكروا فضله عليكم.. ها هو يفتح سلاسل قيده ليقول كلمته.

تتسمر القامات.. تلوذ الرقاب بدوران فاشل، وتتخمر العقول بانتظار من يفسر لهم ما يحدث أمامهم. خائفين من المجهول.. تحولت الضفاف المبعثرة إلى أرجل متزاحمة.. غير مصدقين غضب النهر.

صرخ الرجل ذاته:

- لا تقفوا مكتوفي الأيدي لينتشر الجميع.. وليبدأ كل واحد منكم بحفر حفرة لينزل فيها الماء الغاضب.. انقذوا المدينة من الغرق.

نظرت إلى الرجل الكهل محاولاً استدراجه في الكلام.. تاركًا الآخرين يمسكون المجارف في عمل لخزن الماء داخل جسد المدينة المفتت، والكتاب تحت إبطي، وقبل أن افتح فمي قال:

- لا تتكلم.. ولا تسأل.. اذهب مع أبيك وانقذ المدينة.

خَجِلاً عاد.. مُشاركًا في ازدياد عدد الحفر التي سرعان ما امتلأت بالماء الذي أكل شاطىء النهر. والناس تعمل بسرعة, يخشون المكروه، حتى بدت له البيوت خالية من أجساد تتحرك بين جدرانها. صرخ الجميع بأطفالهم العابثين بالطين الجديد.. يلهون ببراءة لم يعهدوها من قبل.. أن يكفوا عن اللعب والبدء بالحفر فورًا.. وقف

فوق تلة تطل على المدينة المكشوفة، رأى الأرض وقد صارت مثل فقاعات مفجورة، والناس يتحولون من حفرة إلى أخرى وما زال الماء ينبع من بطن النهر الفوار. وتحول العمل إلى ارتعاشة مخيفة وهم يتساءلون.. هل تكفي هذه الحفر الكبيرة التي تغطس فيها القامات لإقناع النهر أن يكف عن فيضانه؟. الحفر لا تتسع للمياه النابعة، والتقت الحفر الكبيرة والكثيرة مع بعضها، بل انهارت جدرانها بفعل قوة المياه.. سارعت إلى الشوارع وتحولت المدينة إلى أنقاض من حفر.

رفع قامته، هاله منظر المدينة، أغمض عينيه محاولاً عدم تصديق ما يراه.. لقد تحولت المدينة إلى حفرة كبيرة تتزاحم داخلها الأجساد الصارخة المتوسلة المتضرعة، وما زال الرجل الكبير يصرخ أن احفروا حتى تحت البيوت.. أعادني كلام أبي:

- ها.. إلى أين وصلت في صفنتك الطويلة؟

نفضت رأسي:

- لقد رأيت المدينة كأنها قبر كبير.

رمى عقب سيكارته في النهر وضاعت حروفه الجنوبية.. وتركني وحيدًا.. أتطلع إلى مرآة طفولتي التي تشظت.. تصفحتُ الكتاب ضجرًا ومتأملاً وجه مدينتي التي تقاوم جفاف جسدها بالدموع.

عند مظلة الحافلات

(١)

في صباح ندي آخر، ظل الحجر يُثقل خطواتي، والـــذبول يُحيطنـــي.. يمشي معي في الشوارع الغريبة المطلة من نافذتيّ عيني المضاءتين بالملل.. أرى تكسر زجاج الأمنيات وتحطم الزمن الذي أردته كـــريح تعبر بي أكداس الهم.. كانت ثمة ريح تهب علـــى مخيلتـــي لتـــزرع أطياف التوق إلى عالم أكثر غنىً، يقودني إلى أن أجلس ذات صـــباح لا أريده بعيدًا، أمام منضدتي في بيتي المنزوي في تفرعـــات أحيـــاء مدينتنا، في عودة ميمونة بعد أن ألقي باشمئزاز العوز فوق منضـــدة الغربة، لا شيء غير الفراغ ومرايا تمنح انعكاســـات الخيبـــة كلمـــا نظرتُ إلى أعماقي، وسواد الأيام التي أحوك خيوطها بمغزل الصـــبر، وجهًا تكسرت فوقه الهموم، وصارت مثل وشم عاجله الزمن ونفض عنه الغبار.. بينما بقيت الأمنيات تتضارب لتتلاشى فـــي الطرقـــات، ساحبة بريقها اللاصف، فأدرك إن البكاء قد انبثق من رحم الخيبـــة، وعليّ أن ألملم التفاصيل الباقية، قبل أن تضعضـــعها الفتنـــة التـــي غشيت مرآتي، داعيًا روحي إلى التماسك وألا تنهار.. أسير وحـــدي في عالم سيضطرب بلمعان أطياف أقواس قوس قزح، لم أكن أعـــي إلى أين سأذهب.. قدماي وحدهما تقودان جسدي المملـــوء بـــالحجر الأصم.. تضرب في عيني أشعة شمس ناعسة، كنت انتظر إطلالتهـــا ليلة الأمس، لأتخلص من لزوجة المكان الذي كنت فيه، لـــم أنـــم..

شعرت باستيقاظي المشوش أو نومي القلق المحفور بأحلام مزعجة، مفكرًا بما سمعته من ذلك الصديق الذي أردته منقذًا لضياعي.. فألهب في داخلي رغبة العودة المطاردة بالعوز.. أفضل مما لو أراه مرة أخرى.. لا حصى أضربه.. والشوارع تنزع عن كاهلها ندى الضباب لأصل إلى ساحة كبيرة.. تتناثر على جنباتها الزهور والنافورات والنصب الكثيرة و..

قبل أن انشغل بالإحصاء رأيتُ تجمعًا أدهشني لرجال مميزين بملابسهم التي لا تخطئها العين في معرفتهم.. شعرت بخدر يمد مدياته إلى رأسي.. احتوت عيناي منظرهم، هابطًا إلى قاع القلق الداكن.. كان ذلك يوم عطلة، كأنهم اختاروه وقتًا مناسبًا ليكونوا معًا في الساحة الكبيرة.. نسيتُ همومي أو إن المشهد الذي أمامي هو الذي جعل من همومي ترتكن إلى حين.

رحتُ ألوذ بوجوه الناس لعلي أحصل على جواب، رأيتهم ينظرون ببرودٍ أشبه ببردِ الصباح الذي ما زال يضرب عظامي.. متفرقين إلى الشوارع المجاورة، مُبعدين خطواتهم، كأن الأمر لا يعنيهم.. هامسين إلى بعضهم بأشياء لم أفهمها جيدًا.. بل إنهم نظروا إلى وجهي متعجبين من تلكؤي في المسير.. هكذا تراءى لي لا أدري أي شيء شدني للبقاء، ولكن كان هناك شيء آخر يتراءى من نافذتيّ المتدثرتين بالاحمرار، فأرتد إلى حيث الفراغ من جديد.

(٢)

كنتُ عائدًا من عند صديق قضيت بقايا الليل معه.. كان أخر ورقة تنقذني من غرق البطالة.. ممنيًا آهاتي بفرصة يمنحها ابن بلدي المهاجر، لعله يستجيب لاستغاثتي ويُزيل الخواء الذي تلبسني حتى صار جزءًا مني.. ظل يتمتع بشربِ الخمر كأنه يشرب نخب تعاستي، يقدم لي كأسًا للمرة الرابعة، أذكرهُ بأنني لا أطيقها.. وأذناي معلقتان بسقف الغرفة، حتى لا تفوتني لحظة سماعي قدرته على المساعدة.. يحدثني بغرابة جعلتني غير مصدق أنه وجد حلاً لمشاكله، كأنه يفتح الأبواب أمامي على طبق المذلة.. يسارع بسكب آخر الكأس في فمه المخمور.. مهلهلاً أمام رقصة سعادته الضائعة في رموش الغربة.

تركته ممدًا لأبقى مع وساوسي الهائجة منتظرًا الصباح أن يولد حتى لا أعود إليه ثانية.. وداخلي حار زاده الدخان سخونة كلما لمعت عيون من تركتهم على وسادة الانتظار.. موبخًا نفسي على تلك الساعة التي غرقت فيها أحلامي ببحر السفر، بحثًا عن مرافئ العمل، أطل منها على أهلي، باعثًا لهم برسائل شوق وأوراق ملونة تعيلهم وتنقلهم إلى مستوى أفضل من درجات الجوع.. اكتشفت أن البحر عميق، والهواء المذاب أشد ملوحة على العينين.. ودوائر الحيرة تراكمت وتحولت إلى أسلاك شائكة. كلما حاولتُ قطعها، كانت أصابعي التي تعودت نعومة الأوراق قد تجرحت بالمهانة، وغسل

الصحون وكنس البلاطات الناعمة.. كل شيء طوقني لأدور في الشوارع مهدئًا رأسي المرتبك من كلمات الذي تصورته معينًا متمسكًا بحبال النخوة.

وقف أمامي في منتصف الغرفة يمثل دور السعيد، قاذفًا بكلماته الجارحة على الأرض، لتنبت أشواكًا لا أقدر إلا القفز فوقها كأني لم أسمعه.. إنه سيتزوج من الفتاة التي رأيتها معه، عندها سيحصل على الطمأنينة وهذا البيت؛ وكأنه الحارس أثناء غيابها الطويل.

في لحظة رؤيتي لهم كنت مستغرقا في الهم الجاثم أمامي كطبق الفطور.. شدني منظرهم العجيب، كانوا متوزعين في الساحة الكبيرة واقفين أو جالسين، يرسمون بأصابعهم حفر الترقب، لا أعلم أي فعل سيقدمون، وهذا المبنى الكبير لابد أن يكون مهمًا بزخرفته وجماله وسلمه الكبير.. كان عليّ أن أتخذ طريقًا آخر قبل أن اسأل عن سبب تواجدي في مكان كهذا.. هناك في تلك البقعة التي رحلت عنها لم تكن الشجاعة حاضرة حين نمر بأطراف هكذا أماكن.. كانت الارتجافة والصمت والزوغان السريع هي ملامح السير حين نخطئ في الطريق وحين تكون هناك إشارات وعلامات ضربت بخطين متقاطعين وثمة من حمل على تقاسيم وجهه ارتباك الآخرين وصيد التائهين قبل أن تلفق لهم تهمة الانتماء إلى خيانة فاكهة العمر، التي لم يذقها أحد من قبلنا ولم نذقها نحن، بانتظار أن نخفي مراجع العدوان على شمس الظهيرة الملبدة بغيوم الحروب.

رأيت سيارة فارهة ترجل منها رجل كبير يملأ الشيب رأسه، لم أتبين ملامحه بوضوح فقد تجمع حوله عـدد مـن المتواجـدين ليبـدأوا حوارهم، فتبين أن شيئًا غامضًا يدور في الوجوه والحركات.. كـان الرجل الكبير يرفع عصاه متوعدًا.. تناقضت فرص مغادرتي للمكـان وأضحت حركاتي محصورة في خطواتي القليلة التـي لا تريـدني أن أبارح قبل أن أفهم ما يدور في هذا البلد الملون.. هناك جنوبيًا يقبـع في داخلي يسيطر على استطلاع يحب أن يهضم ولو بعض التفاصيل.

تقدم نحوي ثلاثة منهم.. انتابني شعور مفاجئ بالخوف، وبحركـة لا إرادية امتدت يدي إلى جيبي لتتأكد من وجود جواز سفري.. في حين استقام جسدي واختفت حدبة الظهر كأني أمام ذلك الرجل الذي كنـت أعرف من أنه من جهاز الأمن ما أن يمر من باب فتحة الشارع حتى تستقيم القامات وتخرس الألسن.. في حين تزوغ النظرات بعيدًا عـن ظله وكأننا كنا في حديث عن كوكب المريخ.. اقتعدوا مصطبة مظلـة الحافلات عندها نزل الهدوء كما الماء البارد مثلما ينزل الجماد علـى أجسادنا حين يبتسم ذلك الرجل الأمني في محلتنا الجنوبية.. تطـاول عنقي لأراهم مادًا بصري من خلال فتحات المظلة.. صرت لصـقها.. أرقب وأسمع.. لا شيء في تقاسيم وجوههم غير علامـات القلـق.. يدخنون، والصمت المريب زاد من اطمئنان بقائي.. فالمفلس لا يخاف السرقة.. وبختُ نفسي وقلت إن الحالة ليست لها علاقة بـالأمن أو الاحتفال بعيد ميلاد مسؤوليهم أو.... وصمتُ، تصورت أن هناك من يسمعني فيكتب اسمي في مذكرته ويبرق به عبر البحار إلـى ذلـك

الرجل ذو العينين الحادتين.. كانت الجموع الأخرى قد شكلت مجموعات متفرقة، تُخرج ضحكات يتيمة من وجوههم المنفوخة.. كأن المدينة لفظتهم إلى الساحة الكبيرة ليكونوا بانتظار هيجان يدوسون فيه اضطرابهم وهيجانهم.

كانوا على مرمى بصري؛ لمحتُ الرجل الكبير يناقش رجلاً طويل القامة بعصبية أفلام الكاوبوي، كأني به أراه يقطب حاجبيه، والرجل الطويل يشير له بتحدٍ واضح، يرفع يده، يدور بجسده، يتراجع خطوتين ويتقدم خطوة، وما خفي عني جعلني لا أفهم شيئًا.. غير أن الرجل الطويل غادر السُلّم ليوقد سيكارته ويبدأ بتحفيز القريبين منه على البقاء.. ضحكتُ وتناثرت الصور البعيدة لتقترب في المخيلة لتكون المقارنة.. انتبهت إلى حوار خفيض متقطع انثال إلى أذني ليجبرني على الاستماع، قال أحدهم:

- هل يستطيع من حثنا على الخروج بالفوز بما أقنعنا به؟

قال الآخر: لا أدري لماذا اشتركت معكم.. لا أريد مصيبة تدخلني في متاهة تقودني إلى البطالة

وبخه الثالث: إنك جبان

خزره الثاني بعين معاتبة.. ورد عليه أنه ليس بجبان.

عاجله الأول: لقد مللنا مطاردة المجرمين.. مُعرضين أنفسنا للإصابة أو الموت.. لا يوجد شارع بلا جريمة.. اغتصاب، سرقة، قتل، ونحن المسؤولون عن الأمن..

أيده الثالث: ورغم كل هذا ما زال وضعنا مزريًا.. رواتبنا قليلة، نريد تحقيق مطالبنا.

زفر الثاني: أتمنى ذلك.. حتى إن نساءنا زدن ضجرًا وصرن يبحثن عن أحضان دافئة.

رده الأول: إذن لماذا توبخ نفسك على حضورك؟

عرفتُ الآن سبب تواجدهم.. لم أسمع من قبل أن رجال الشرطة قاموا بمظاهرة أو إضراب أو احتجاج.. كانوا هم من يقومون بتفريق المتظاهرين، يحملون الزجاجات الواقية، تاركين خراطيم المياه تفعل فعلها في الأجساد الصاخبة الغاضبة..والعيون الباحثة عن فسحة للخلاص من غابة دخان القنابل المسيلة للدموع.. ضحكتُ مبتعدًا عن مظلة الحافلات خطوتين وتساءلت: "كيف الحال إذن.. من يقوم بإنهاء إضراب الشرطة؟"

رميت صورة صديقي وأحلامه.. وأزلت قلقي المعلق أمام عيني، لأحتوي هذه البقعة التي ستشهد الخراب الديمقراطي، وأنتشلُ بعضًا مما أراه.. قد ينفعني ذات يوم حين أجلس خلف منضدتي.

تقدمتُ إليهم أرصد حركات وجوههم، لا شيء غير ترقب وآمال طافحة في المجهول.. فغاص في داخلي حب التطلع.. فهؤلاء يختلفون عن شرطة مدينتي الجنوبية الذين أعرفهم واحدًا واحدًا.. حتى أصل عشيرتهم ونسبهم، وأعرف تطلعاتهم التي لا تتعدى كثيرًا التفكير بكيفية إفراغ جيوب المراجعين إلى مراكزهم تحت يافطة حفظ النظام والتخويف من القصاص المنتظر.

جلستُ على طرف المصطبة الطويلة باطمئنان أكبر.. هنا أفضل مما لو كنت خارج المظلة مثيرًا للشكوك، فأنا الوحيد الذي يرتدي لباسًا مدنيًا في الساحة الكبيرة، من زاوية عيني اليسرى سرقتُ نظرة استطلع أكتافهم، كانوا نازعي الرتب كطريقة للتساوي في مطالبهم الشرطوية.. لم يعرني أحدهم انتباهًا، ظلوا مشغولين بحواراتهم الكاشفة عما يودون تحقيقه من الحكومة. أدخلوني في دوامة الطرقات المظلمة والأبواب المؤصدة غير مصدق ما أسمعه، أو أنني تناسيت تمامًا إن مثل هؤلاء قد يكونون بمستوى من الظلم الذي يحيطهم.

صرتُ أمسك ساقي مخفيًا بقايا ارتباكي.. ثمة جرس يرن في أذني أسمعه يوبخني على جلوسي، كان عليّ الإصغاء وترجمة ردود أفعالهم، والظهور أمامهم بمظهر المتعاطف معهم، هم يشرحون لي مطالبهم التي من أجلها خرجوا، جعلوني متنفسًا لما يخنق صدورهم فكانت هزة الرأس علامتي الوحيدة كموسيقى جعلتهم يرقصون في دواخلهم، ابتسم لهم وتركت الكلمات تهرول أسفل حنجرتي، تتصاعد من أحشاء الغربة، وبقي خارجي صامتًا محافظًا على لساني، غارقًا في أفكار جائعة لالتهام ما أراه. مقارنًا بين ما تحمله ذاكرتي الريانة مع خيوط الشمس الصاعدة.. وبين ما أسمعه.

هنا، رغم التحرك الواسع والخطوات الواثقة واللسان الذي يقول ما يشاء، يوجد مجهول يحاك.. له فم واسع يلتهم الحقائق، له عقل يخطط لأن يسير الناس كيفما يشاء، وليعطينا صورة تُبهر أبصارنا..

هنا البذخ المفروش على الأرصفة والبيوت وواجهات المحال والنافورات البراقة والنصب الخليعة كَفَن طليق والاضوية التي لا تعرف الانقطاع والحرب التي لا تصل أراضيهم. كل شيء أعد لهم.. يتركون ناسهم يأكلون ويتناسلون حسب الرغبات التي لم تكبت بين السيقان وخلف نظرات العيون المتلصصة.. أسمع منهم ما يناقض معرفتنا بهذا العالم البراق، الفاتح لبوابات ملاعبه لأقدامنا المتشققة.

تساءلت: ماذا لو حدثت مواجهات.. هل تنزل قوات من الجيش لتفريق الشرطة المطالبين بتحسين أوضاعهم المعيشية؟
تذكرت ذلك الشرطي الذي كان يعود إلى بيته متعبًا بملابسه المصبوغة بالعرق، يُعَدّل من تجعد بنطلونه، حاملاً بيده كيس الخضار وعددًا من أصابع (النستلة) هدية لأطفاله المنتظرين عودته عند باب الدار، يدب في جسده خدر الظهيرة. حين سألته ذات مرة كيف الحال يا جاري العزيز.. أجابني بذات الجملة التي كان والدي يكررها دومًا عند عودته من المدرسة والغبار يعلوا عقاله وتعب التنظيف يثقل ظهره (الحمد لله). زحف نظري لتكملة المقارنة.. لم أجد في وجوه الجالسين تلك القناعة وذاك الحمد، وحسبتُ أنهما غادراني يوم فكرت بالسفر.

لم أنهِ إصغائي ومقارنتي إلا برؤيتي عددًا من المصورين ومراسلي الشبكات التلفزيونية، يتراكضوا هنا وهناك ليتخذوا مكانًا جيدًا لصيد الأحداث، كانت الساحة الكبيرة قد بدأت تعج بالحركات الغاضبة كلما ارتفعت الشمس وطال الوقت. وذاك الرجل الكبير يخرج بين فترة

وأخرى ليقف على السلم الكبير يلوح بالعقاب مرة وباللين مرة أخرى. خرج لساني مرغمًا:

- تصوروا.. صِوركم وإضرابكم في كل الشبكات الفضائية.

لوى الجالس وسطهم رقبته، ولم يعرني الآخران انتباههم متناسيًا إن الحالة طبيعية بالنسبة لهم. وكبيرة مرعبة عندي. بادلني الجالس في الطرف الآخر نظرات مستفهمة، ليغرز حجر الخوف الناتئ في صدري. جعلت من بركة الشكوك تتوسع حولي. بادلته ابتسامة فاترة ملوحًا بسبابتي إعجابًا وتأييدًا.. وقفت عند طرف المظلة مُزيدًا من مساحة صمتي.. تاركًا لأذني مهمة فهم ما يقولونه، والسؤال ما زال مُعلقًا في سقف المظلة.. كيف سينتهي الإضراب.

في اللحظات اللاحقة تعالت الصيحات والهتافات.. وطغت الفوضى في حركات رجال الشرطة وهم يتجمهرون أمام السلم؛ كلما خرج أحد إليهم، منذرين كل من في الداخل أن يستعجل الوقت وتستجاب مطالبهم، تصورت المدن في هذه البلاد وقلتُ لابد أن يُستغل الفراغ الآن من قبل اللصوص وعصابات القتل والنهب والاغتصاب.. كان منظرهم وهم يجوبون الشوارع بسياراتهم يجعل المجرم يختفي أو يؤجل فعله، لكن الصيحات ازدادت ضراوة.. ها هو الإضراب تحول إلى تصادم.. متزاحمين أمام المبنى الكبير وعدسات الكاميرات. تراكضوا هنا وهناك وحراس الباب الزجاجي الكبير يقفون شاهرين أسلحتهم في الوجوه، فتتحدد الحركة عند السلم، صدفاتهم تصطدم

بزجاج النوافذ، مودعين أمانيهم عند الأقدام، تحول كل شـــيء فـــي نظري إلى حديد صدئ.

كان الثلاثة قد غادروا المظلة ملتحقين بالصفوف تـــاركين كلمـــاتهم ناتئة كمسامير في إثرهم، سحبت نفسي بقوة لأقلل من ضغط الصمت مكلمًا نفسي ما أفهم.. وصورة أطفالي أخذت تتراقص فـــي مخيلتـــي على أنغام شرقية حالمة، لتبرز أمام عيني في نهار موجع بدلاً مـــن الليل الذي تركته لهم، رأيتهم عائدين من مدارسهم حاملين حقائبهم، يسابقون ظلالهم في شوارع مدينتنا الغافية على نهـــر يشـــق أرض البلاد كخط طولٍ ينبت اسمًا له رنة التاريخ. أغمضت عيني لأحتويهم شاعرًا ما في داخلي من صراخ.

أمسكتُ قبضتي متمنيًا لو طوحت بها بوجه الكائن اللعين ذي الرائحة المُخدِرة.. الكائن الذي أغراني بالسفر.. بعتُ أغراضي وأثاث بيتـــي وما جمعته من مال، وهو قابع في رأسي يحثني أن أسافر.
وحين خرجت عافني عند الحدود.. يراقب خيبتـــي ويضـــحك مـــلء شدقيه.

تمنيت لو كنت هناك لو طرت بجنـــاحين وآوي إلـــى تلـــك الرائحـــة الخارجة من ماء النهر، وأغترف ما تسرب مني هنا. مثل مـــاء زلال لا أرتوي منه، تمنيت لو احتضنتهم وقلبت دفاترهم وقرأت درجـــاتهم وما كتبه المعلم من عبارات جميلة. أخرجت آهاتي الحارقة، فتسربت دمعتي، قافزة على وجنتيّ الضامرتين.

(٣)

أقبلتْ ريح ضربت وجهي مدغدغة عينيّ فأسلمتها خـــدري، عـــزفٌ شجي من ناي يَنفخُ فيه هاو ريفي. التقطت ترددات صوت له بحـــة جنوبية.. ارتسم شكله أمامي.. رحت أتمايل معه وأدور كفًا بكفٍ بلا مسبحة. كثيرًا ما أحببت سماعه وهو يردد (يمة يا يمة) لينساب دمع طفل فقد حضن أمه مبكرًا.

ثم رفرفتْ أجنحة بيض أمام وجهي، لينطلق صـــوت مـــن حنجرتـــي مرددًا (يا طيور الطايرة)، عندها كانت زوجي تقول بكآبة مســـحوقة ميزتُ نبرات أنينها، "اكتب لنا أو ارجع.. لا نريد غيبتك".

وخزتني كلماتها وأضاءت لي نصف الطريق.. فتحت عينيّ لأمد يدي إلى ولدي المصر على تلقينه نشيدًا للنشيد الصباحي (بلادي..بلادي).

جسدان كانا يتحركان باتجاهي أعاداني إلى وضع الارتبـــاك وضـــياع الحلول.. قلتُ ماذا يريدان مني؟ كان أحدهما يحمل كـــاميرا والآخـــر يمسك مايكروفونًا ينتهي بمربع رُسمت عليه علامة القناة التلفازيـــة العربية. هل عرفاني، وجاءا ليلتقيا بـــي ويعرفـــا شـــعوري ورأيـــي بإضراب الشرطة؟ كان الأجدر بي أن أخف قدمي مبتعدًا منـــذ البـــدء (يالخيبتي) ماذا لو عرضوا صورتي هناك في بلـــدي.. كجـــزء مـــن أخبار الساعة التاسعة؟ ماذا سيقول عني أهلي والنـــاس وغيـــرهم؟ كيف تستطيع زوجي أن تجيب على أسئلة لها طعم النار، إن طرقـــوا

الباب عليها؟ تراكمت الأسئلة، وانطلقت مثل خيول جامحة، تناثر غبار حوافرها على مرآة اطمئناني.

قررتُ أن أغادر المظلة وأولي وجهي خارج الساحة، فاكتشفت إن الشوارع قد أقفلت بسيارات مختلفة وبشرائط صفر يمنع اجتيازها.. تعثرت قدمي في أول خطوة مع سماعي لصوت المصور.. أن أساعده في صعود المظلة وكذلك المراسل، نفضت الارتباك عن جسدي، وأعدت تنفسي إلى هدوئه، سمعت المراسل يطلب مني إن رأيت شيئًا بعيدًا أو قريبًا يستحق التصوير فعلي الإبلاغ.

لمحت فكرة جاءتني سريعًا ونزلتْ بين كفيّ بالتماعاتها الضوئية، تساقطتْ حباتها كما المطر، وأحاطتني فرصتها وشاغلت عقلي تمامًا، مسترجعًا ما قاله رجال الشرطة الثلاثة من معلومات، رفعت رأسي مقررًا ألا انتظر ضياع الفرصة، قلت بلهجتي التي كدت أنساها في شهوري الستة:

- لدي من المعلومات ما تفيدك.. سأجعلها بين يديك.

رأيتُ في وجههِ استغرابًا، عندما تلقف لهجتي:

- هل أنت..؟

قاطعته مؤيدًا استفساره متفحصًا تعابير وجهه وأنا أعيد عليه جملتي، فوجدته كمن يتأكد:

- حقًا؟!!

وبثقة قلت وأنا أعدّل من انحناءة ظهري:

- نعم.

بدون مبالاة.. وهو ينظر إلى الساحة قال:

- ما هي؟

- وهل تريدها مجانًا في هذا الزمن الصعب.. سأعطيك سبقًا صحفيًا لا يعرفه غيري.

عاد إلى وجهي شغوفًا ملتصقًا بما لدي مثل قطعة صغيرة إلى قطب مغناطيس:

- من أين حصلت عليها؟

أشرفتُ على النجاح، ها هو يفتح عينيه، واقعًا في الإقناع، فهو يريد المعلومات التي تؤكد لقناته أنه مراسل جيد وصياد أخبارٍ ناجح، تحولت كلماته إلى رجاء خفيف حاول إخفاءه بتصنع ظاهر. فقررت ألا أسقيه عشب المعلومة دفعة واحدة، مُضيقًا عليه فسحة الهروب إن فكر باتجاه آخر:

- أنا أعرف أهدافهم.

لم يزل يركع في وقوفه متجمدًا أمامي.. يراني كطيف لا يمسكه ولا يريد التفريط فيه.

- المعلومات التي لدي ستهز العالم وتجعلك من أشهر المراسلين في العالم.

أوشك أن يصرخ في وجهي كمن أسكرته.. دائخًا تمامًا يريد الإمساك بالحقيقة.

- لقد سرقت لسان ثلاثة منهم كانوا هنا.

هز رأسه يبحث عن كلمات تعينه على الالتفاف فعاجلته:

- لدي معلومات هامة عن كيفية إنهاء إضراب الشرطة.

- اصعد أيها...

خرجت ابتسامة منتصرة من وجهي:

- كم ستعطيني؟

- كم تريد؟

- ثمن العودة إلى بلدي.

لم أكن مقتنعًا أنه سيقبل المقايضة.. وسيقف معتدلاً في النهاية رافضًا طلبي.. ومثل رجل كثيرًا ما تدرب في الجيش، صعدت مظلة الحافلات لأكون ثالثهم.. ولأشرف تمامًا على الرؤية.. واقفًا خلف المصور وهو يهيئ اتصالاً مع قناته، تنفست ملء صدري، جاذبًا كومة الاطمئنان الجديد إلى عالمي مُزيحًا فراغ العمل الذي طوقني.

- ماذا كنت تعمل في بلدك؟

نزل سؤاله كما الصاعقة، ودار في قاعي الضاج بالمتفرجين الصامتين.. كيف أجيبه بصدق معلوماتي.. دون أن أقلل من شأني أو أثير شكوكه المندثرة تحت ثيابي؟

قلت بعد تردد:

- كاتب عرا..... ئض.

لا أدري لماذا قلت له ذلك.. لمحته يقف أمام الكاميرا لتثبيت العدسة.. وعدستي بدأت تلتقط صوت النذير من أن المصيبة التي لم أحسبها.. قادمة. هل أفكر بالهروب والنقود تلعب في جيبي.. تؤدي أدوار ممثلين كوميديين يبعثون البهجة في نفوس التعساء؟ والسؤال

الدائر في رأسي يعمل كحفارة عملاقة، كيف سينتهي الإضراب وماذا سأقول له؟ ناولني ورقة وقلمًا.

- أكتب ما لديك بسرعة.

ألوك حيرتي.. أشعر بوخز رؤوسها في خاصرتي. فما سمعته لا يستحق هذا المبلغ.. الهتافات تزداد.. أحاول أن أنشغل قليلاً عن المراسل لأفكر بطريقة أخرى..

لم تكن هتافات رنانة، ولم يحمل أحدهم على الأكتاف ولم ترفع اللافتات.. اختفى الرجل الكبير في المبنى، بيد أن الرجل الطويل وقف وسط السلم يشير لرجاله أن لا عودة عن مطالبهم ولا تراجع عن موقفهم.. خرج شخصان، وقفا بجوار الرجل الطويل.. دار حوار بينهم.. ارتفعت الأيدي، سرعان ما تحول النقاش إلى مشادات كلامية. فصعد رجال الشرطة وانهالوا بالضرب عليهما.. صاح المراسل بالمصور أن يقرب الصورة من الوجه.. ثم التفت إليّ:

- اكتب.

- سأقول لك ما سمعته وأنت تقول ما تسمعه مني.

ترك المراسل أذنيه لكلماتي الشارحة لمطالب الشرطة.. مزيدًا عليها من مخيلتي، فكل المطالب متشابهة في هذا الكون. كان طيف الراحة يتراقص في عينيه، كأنه يقول لي المزيد؟ فأزيد.. عاصرًا كل ما تختزنه الذاكرة من المعلومات وصور متشابهة.. شممت في إصغائه رائحة القبول، عندها أشرت له نحو الرجل الطويل.. من أنه محرضهم.

- لحظة من فضلك.

التقطُ أنفاسي.. أهداني ثغرة أنفذ منها لصمتي.. وتفكيري. وقف أمام الكاميرا ظهره إلى الساحة الكبيرة، واضعًا المايكروفون أمام فمه.. وراح يتكلم بصوت لا يخلوا من الانفعال كمراسل جيد يوافي قناته بآخر الأخبار عن إضراب الشرطة في بلد الديمقراطية.. ثم اختتم رسالته بقوله:

(سنوافيكم بعد قليل بسبق إخباري مصور عن كيفية إنهاء الإضراب الذي خُطط له داخل المبنى الكبير، لقد استطعنا الوصول إلى الأماكن السرية وحصلنا على التفاصيل الخاصة.. وإن الوضع في تفاقم متزايد كما تشاهدون الآن)

ها هو ينقل مباشرة، ويحثني على الكتابة أو إخباره بالنهاية. متلقيًا نظرة من عينيه تستعجلاني.

صفنت قليلاً وارتعاشي أخذت تصعد إلى بلعومي، أمسكُ رأسي لأستخراج النهاية، قلت لأتصور إنني أكتب قصة.. انفصلت عن المظلة والساحة والسماء الباعثة بشمس باردة. لمعت في رأسي صفحة لامعة مثل تلك التي تنتابني كلما آويت إلى أوراقي في ساعات الاختلاء لممارسة هواية اللاوعي.. نهاية فنتازية تتصادم مع ما هو مألوف تتناسب تمامًا مع عالم كهذا يخترع الأشياء ليصدقها العالم. وما دريت، كيف انساب القلم إلى الورقة الموضوعة على فخذي.. مُستحضرًا أصداء الأصوات التي هزتنا بنيرانها الحارقة المتقارعة مع الموت حتى لا يمنحنا وقتًا لتلاوة الشهادة. ناولته الورقة، مبتلعًا

آخر نفس من سيكارتي الأخيرة.. كأني أتنفس الهواء، عيني تراقب أفعال المراسل، رأيت الوهدة مرتسمة في وقفته، فاغرًا فاه فانكفأ متراجعًا عني ليعيد قراءة ورقتي. لم يجد غير أن يصدق. ويقف أمام الكاميرا تاركًا حيرتي تسبح أمامي.. تأخذني في سوراتها.. والكلمات التي كتبتها تتقافز أمامي لابطة مثل أسماك مرحة.

"بعد تفاقم الأوضاع وانفلات زمام الأمور. خاصة بعد أن أشبعوا بعض المسؤولين ضربًا؛ مما زاد من غضب من يتواجد في المبنى الكبير.. فكان الحل الذي خرج به المستشارون في صناعة الأحداث وتلفيقها.. هو ألا تخرج قوات من الجيش لقمع الشرطة. لأن المراسلين ينقلون الأحداث مباشرة، مما يعني غياب الديمقراطية وعدم احترام حقوق الإنسان، ويُعرض الحكومة للمساءلة أمام الرأي العام وسيكون مادة دسمة للصحف الباحثة عن الإثارة وزيادة المبيعات.. والدول المضادة التي ستطالب بجلسة مفتوحة لمجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة.. لفضح ما تلقفه من أكاذيب ضدها.. عندما تقوم بإنهاء تمرد أو عصيان، فكان الحل النهائي بعد طول مشاورات وجدال هو الاتفاق مع مساجي.."

كنتُ منشغلاً بمعالجة الغصة وجفاف بلعومي، مترنحًا في وقفتي.. دائخًا. كأن القيظ قد لفحني.. فكرت بالقفز راميًا بالنقود ما دام المراسل مشغولاً بما يبحث عنه. وقد أخذ يصارع قلقه.. ماذا سيكون حال القناة والصحفي وحالي. ماذا ستفعل حكومة هذا البلد عندما تتقدم بشكوى ضد القناة، وتعرف أنني من أعطيت معلومات كاذبة..

غرضها تشويه سمعتها الدولية، وسيعتبرون ذلك سببًا في استمرار الحصار.. بسبب التدخل في الشؤون الداخلية، تساءلت.. ماذا لو كانوا قد سمعوا الخبر؟ فإن من المؤكد أنهم حتى إن كانت هذه خطتهم فإنهم لن ينفذوها لأنها اكتشفت، وسيجعلون منها قضية دولية.. لتعريض أمنها الوطني إلى السخرية.

راحت الأسئلة تتصارع مع الخوف وتسبح في الارتباك وتأكل مع القلق؟ سأودع في السجن بتهمة المساس بأمن الدولة، بعد أن يلاحقني جهاز الإنتربول والشرطة المحلية أنفسهم عندما ينتهي الإضراب.

جاءني صوت امرأة من خلال اللاقطة الموضوعة في أذن المراسل.. جعل من أسئلتي تتوقف.

- هل أنت متأكد مما قلته؟

رد عليها بثقة، وعيناه تغوصان في الفراغات.

- نعم..وستتوجه الكاميرا بعد قليل لنرى من أعد سيناريو.

النقود في جيبي.. اقترب من حافة المظلة.. قفزة واحدة مع إرجاع النقود ومغادرة هذا البلد بأي طريقة.. أيتها النقود.. إنك كما النار تحرقين الذي يملكك والذي يتمناك.

أخرجتُ نصف قدمي من حافة المظلة.. عطشًا، وصراخ في رأسي يفوق صراخ الشرطة في الساحة الكبيرة. والمراسل ما زال يتفحص الطرقات بحثًا عن السبق الصحفي.. عينًا على الورقة وعينًا على الساحة.. وعيناي تزوغان تتحينان فرصة الهروب. وفي اللحظة

الموازية لرفع جسدي.. رأيت وجوهًا كالحة.. تنـــزل مـــن ســـيارات عديدة. في الشارع المقابل اليميني.. وجوهًـــا ملتحيـــة.. أجســـادها ضخمة وملابس متباينة، ويحملون هراوات غليضة..

تلقفني الفزع وأعادني إلى منتصف سطح المظلة. طفل وجد حضـــن أمه بعد جوع. تراءت لي صور شتى تتراقص أمامي، تنير لي نصف الطريق الآخر لتكتمل العودة.. تمد أيديها مرحبة لأودعها في حضني. أبرك باكيًا أنزف دم الغربة من مساماتي، في الشارع الفاصـــل مـــن بيتنا والطريق العام.. بينما تخرج ضحكات يتيمة تصـــدر مـــن فـــم مخمور لصديق تاه في الطرقات.

لم أعد أستطيع الكلام.. يبس حلقي.. كل ما فعلته.. أشرت للمراســـل والمصور أن يتجها إلى مدخل الشارع المقابل.. لم يصدقا ما رأياه.. جموع هائلة لا تشبه بهيئتها إلا جموع المساجين. بدأوا يتراكضـــون باتجاه وسط الساحة.. رافعين هراواتهم وأصـــواتهم تتعـــالى كرهًـــا بالمضربين وحبًا بالحكومة.. انشغل المصور بمتابعة التصوير.. بينما كان المراسل يحتضنني بحرارة كبيرة..

مهيئًا نفسه لإرسال جديد قال:

- سأربط الأحداث بما جرى على بلدكم من سيناريوهات.

لم أتكلم.. كنت مطوقا بذراعيه، وكأنه يعاني ما أعانيه.. وأنا أعرف إن ما بداخله يختلف عن الخوف الذي لا أستطيع البوح به.. وكانـــت الشمس تُرسل حرارة خاصة تحيل جبهتي إلى سخونة لـــم أنســـها..

وثمة ارتعاشة جديدة لا ارتباك فيها، تُشبه من انتصر في تصـــوراته وأفكاره.

سمعته يقول:

- سأجري لقاء معك.. لأنك من كشف الحقيقة.

عفته لكلماته التي لا تفزع وقفزت متبخترًا في مشيتي.. حاملاً جواز سفري مقررًا العودة. ما زالت أيدي أطفالي تنـــادينـي أن أحتضـــنهم هناك قرب النهر لاغترف فراتًا يغسل أدران من حملوني على الســـفر وهم يراقبون الحروف.. قلت ربما حين أعود لن أجد ما كنـــت أراه.. وقلت ربما سأجد كل شيء تغير.. قلت، الحيرة والخوف والقضـــبان و.... قطع المراسل أحلامي:

- لحظة..هل حقًا.. إنك.. كاتب؟

ابتسمت في وجهه كاشفًا عن صدر لا تسعه الأرض:

- نعم.. ولكن.. كاتب قصة.

❖ ❖ ❖

المؤلف في سطور

§ كاتب وإعلامي عراقي من مواليد عام١٩٦١

§ عضو اتحاد الأدباء العراقيين

§ عضو اتحاد الأدباء والكتاب العرب

§ عضو نقابة الصحفيين العراقيين

§ نشر العديد من القصص والمقالات النقدية في المطبوعات العراقية والعربية

§ الإصدارات :

١. امرأة من النساء : قصص قصيرة، ١٩٨٨
٢. اليوبيل الذهبي : قصص قصيرة، ١٩٨٩
٣. بيت اللعنة : قصص قصيرة ١٩٩٨،

(حازت على جائزة الإبداع العراقي في عام١٩٩٨)

٤. وشم ناصع البياض : رواية، ٢٠٠٠
٥. اليوم الأخير لكتابة الفردوس : رواية، ٢٠٠٢
٦. مواسم الإسطرلاب : رواية، ٢٠٠٤
٧. المئذنة : مسرحية من فصل واحد، (قيد النشر)
٨. أنا وأنت والمدينة : قصص قصيرة، (قيد النشر)

§ البريد الإلكتروني : a_laftasaeed@yahoo.com

شمس للنشر والإعلام

رؤية جديدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر، تم تأسيس "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، ومابين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ العربي، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على نشرها وإبرازها.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية في العديد من الدول.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.
- إعادة نشر التراث المعرفي العربي ذي الإفادة في عصرنا، وتحقيقه وتدقيقه.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له؛ في النهاية؛ مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004/5 - (+2) 0188890065

n

§ إهـــداء ٥

§ مداعبة الخيال ٧

§ ترحال ٢٥

§ ناشينا ٣٣

§ مدينة النار ٤٥

§ الجنوبي ٥٥

§ ما لم يقله النهر ٦٩

§ عند مظلة الحافلات ٧٥

§ المؤلف في سطور ٩٩

§ شمس للنشر والإعلام ١٠٠

§ فهرس ١٠٣

شمس
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥ (+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤
www.shams-group.net